الصورة الذهنية للإسلام , صراع حضارى أم إصلاح دينى

الاستشراق فى كتابات المؤرخين غير المسلمين خلال العصور الوسطى

The mental image of Islam, Civilization struggle or religious reform orientalism in the writings of non-Muslim historians during the Middle Ages

الدكتور / جلال زناتى جلال زناتى

قسم العلوم الإجتماعية – جامعة الأسكندرية

ملخص الدراسة:

تتناول هذه الدراسة الصورة الذهنية للاسلام , صراع حضارى أم إصلاح دينى , الاستشراق فى كتابات المؤرخين غير المسلمين خلال العصور الوسطى , وإعتمدت الدراسة على المنهج التاريخى الذى يعتمد على المصادر فى توثيق الاحداث خاصة وأن المصادر التى استقى منها الاوربيون مادتهم عن الاسلام غلب عليها الشعبية والتعصب وإنعدام المنهجية خاصة وأن جل هذه المصادر نقلت عن الاسلام ولم تزر بلاد الاسلام , وخلصت الدراسة إلى عدة نتائج أهمها أن صورة الآخر فى العصور الوسطى عن الاسلام تمثلت بتشويه صورة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم اعتمدت على الرواية الشفهية أو المكتوبة من قبل رجال الدين عن الدعوة الاسلامية على إعتبرها تهدد أركان الايمان المسيحى لطبيعة السيد المسيح عليه السلام , كذلك إذدات الصورة المعتمدة على التعصب ضد الاسلام خلال الحروب الصليبية لما كان للباباوية من تأثير فى دعم الدعاية السلبية ضد الرسول والاسلام لخدمة أهداف الكنيسة تارة ولخدمة أباطرة وملوك أوربا الموالين للكنيسة تارة أخرى , أيضا تدرجت نظرة الاوربيون للاسلام من كونه هرطقة قبل قدوم الحروب الصليبية , ثم كونه إحدى صور الوثنية خلال فترة الحروب الصليبية وهى الصورة التى لازالت أصدائها حتى الآن فى ظاهرة الاسلاموفوبيا كنتيجة لتلك الكتابات المفبركة.

Summary:

This Study deals with the mental image of Islam ,civilizational conflict or religious reform,orientalism in the writing of non-Muslim historian during the Middle Ages.The methodology, especialy since most of these sources quoted from islam and did not visit Islamic

countries.The Study concluded with several results ,the most important of which is that image of the other in the Middle Ages on Islam represented a distortion of the image of the Messenger Muhammad ,may God bless him and grant him peace.

The image based on fanaticism against Islam during the Crusades,because of the influence of Papacy in supporting negative propaganda against the Messenger and Islam to serve the objectives of Church at time and to serve the emperors and kings of Europe who are loyal to the church at the other times,Also,the Europeans view of Isalm gradually changed from being heretical before the advent of the Crusades,then to being one of the forms of paganism during the era of the Crusades,an image that still has its echoes until now in phenomenon of Isalm Phobia as a result of those facke writing.

كلمات إفتتاحية

مفهوم الآخر – الاستشراق – العصور الوسطى

مقدمة

يمكن القول أن كثيرا من القضايا الثقافية والسياسية والفكرية التى نعانى منها فى عالمنا المعاصر – والتى تعود بجذورها إلى العصور الوسطى , ترتبط بالضرورة بالصورة النمطية المأخوذة عن الاسلام خلال العصور التاريخية المختلفة والتى شكلت فى معظمها فهما خاطئا للاسلام والمسلمين وذلك استنادا لما سرده المؤرخين والكتاب الاوربيون خلال العصور الوسطى , ومن تلاهم من المستشرقين الذين نقلوا صورة مغلوطة عن الواقع الفعلى للإسلام والمسلمين.

كما أن التحديد الجغرافى لأوربا فى تلك الفترة التاريخية كان بمثابة تحديد **جيوتاريخى** يعبر عن القارة الاوربية التى يحدها شمالا المحيط المتجمد والمحيط الاطلنطى فى غربا والبحر المتوسط والاسود جنوبا ونهرى الدانوب والفولجا فى شرقا وهو مصطلح جغرافى أكثر من كونه سياسيا[١].ووفقا لتصنيف الاوربيين فقد إنحصرت نظرتهم

(١) Marits S. Berger, A Brief History of Islam in Europe , Leiden University Press,2004,p.19.
مصطلح جيوتاريخى **Geohistory** لفظا حدده الباحث على أن الحدود فى تلك الفترة بين الدول والممالك كانت حدودا جغرافية الشكل ولكنها تاريخية عرقية من حيث الترتيب والسرد للأحداث إذ لا يمكن الفصل فى تلك الفترة بين الجغرافيا من جانب والسكان ومن ثم الأحداث التاريخية المختلفة (التاريخ الاجتماعى **Social History**) من جانب أخر , كما أن هذا اللفظ يمكن أن يرتبط بالدراسات البينية **Interdiscplinary Studies** والتى تسمى مستقبلية **Futuristic Studies**

فى تصنيف الشعوب فى تلك الفترة التاريخية إلى المسيحيين المنتمين إلى الكنيسة وهم المؤمنين , وغير المؤمنين وهم غير المسيحيين وربما مرد تلك النظرة تجاه المسلمين بسبب خسائر الإمبراطورية البيزنطية على أيدى المسلمين [٢].وعلى الرغم من أن تعداد المسلمين والمسيحيين الحالى يشكل أكثر من خمسين فى المائة من سكان العالم , وغم أن رسالة النبى محمد اهتمت بخلق الشخصية السوية [٣]. ولكن فى هذه الايام ينظر إلى طبيعة العلاقة بين المسلمين والمسيحيين إلى أنها نوع من صدام الحضارات , أو فى طور العلاقة بين الشرق والغرب أو كما يشار نحن فى مقابلهم أو الخير فى مقابل الشر , المتحضرين فى مقابل الهمجية , الايمان فى مقابل عدم الايمان تلك معانى عدة لصدام الحضارات [٤].

لذلك نجد أن **مفهوم الآخر** من المنظور الدينى تعنى بالضرورة توضيح العلاقة بين الانجيل والقرآن ويشير ذلك إلى معرفة عقيدة الآخر , بمعنى وضع كل من محمد وعيسى بن مريم(عليهم الصلاة والسلام) ولكن بمنهجية مختلفة , فمفهوم الآخر فى القرآن يشير إلى أبناء إبراهيم أو أهل الكتاب. أما فى الانجيل فمفهوم الآخر تعنى معرفة معنى المسيح نفسه وليس معرفة ديانات أو شعوب أخرى[٥].ولم تنحصر العلاقة بين المسيحيين والمسلمين على مجرد تبادلات فلسفية وليست مجرد الخوف من المقارنة بين الايمان وعدم الايمان بل أن العلاقة بين الشرق والغرب اعتمدت بشكل كبير على مواجهة التهديدات الاسلامية لحماية أمنها الداخلى[٦].فالصورة التى رسمها الأوربيون عن الاسلام تكونت بفعل النصوص الدينية فى الكتاب المقدس أو من خلال كتابات الرحالة أو

=والتى تربط بين تخصصات العلوم الاجتماعية لما لها من تأثير على حركة التاريخ وعلى فهم أحداثه ومن ثم الاستفادة منه كعلم يساهم فى تفسير الظواهر الانسانية المختلفة , كذلك فإن الدراسة موجزة رغم الاحتياج إلى تفصيل وهو الامر الذى يصعب معه ذلك كون هذه الدراسة بحثا وليس رسالة علمية بها مساحة للتفصيل والاسهاب فى السرد **."الباحث"**

(٢) علاوى الخامسة : العجائبية فى أدب الرحلات , رحلة ابن فضلان نموذجا , رسالة لنيل درجة الماجستير فى الآدب العربى , جامعة قسنطينة , الجزائر , ٢٠٠٥ , ص٣٠.

ابن فضلان – هو أحمد بن العباس بن راشد بن حماد البغدادى (٨٧٧-٩٦٠م) , كتب وصف لرحلته كعضو فى سفارة الخليفة العباسى أبو الفضل جعفر المقتدر بالله (٨٩٥-٩٠٨م) , إلى ملك الصقالبة تصف رسالة ابن فضلان شعوبا شتى فى مدن وسط أسيا والتجار الاسكندنافيون فى روسيا ولم تكن لجل هذه الشعوب سجلات مكتوبة عن تاريخها وثقافتها مما يجعل الرسالة مصدرا ثمينا فى هذا الميدان ورغم ذلك لم تذكر المصادر التاريخية المعاصرة ذكرا له ولسفارته ولرسالته التدونها بنفسه. راجع : جمال الدين فالح : الرحلات والرحالة فى التاريخ الاسلامى , دار المصطفى , القاهرة , ٢٠١٤, ص١٠٦.

(٣) أنظر : Muqtedar Khan,Prophet Muhamad Promis to Christians ,Bakistan,N.D,p.1-2 .

(٤) راجع :

Craig Considine,Religious Pluralism and Civic Rights in a "Muslim nation": An analysis of Prophet Muhammads Convenants with Christians,Houton,USA,2016,p.2.

(٥) Marco Denichelis : The seal of Prophets,Muhammad and Isa Ibn Maryam in Dialouge ,Pamplona,Spain,2020,p.1-2.

(٦) Kenneth H. Crandall,The Impact of Islam on Christianity,New york,1952,p.6,p.9.

المؤرخين أو رجال الدين والسياسة فى العصور الوسطى وحديثهم فى معظمه إرتبط بفكرة الارض المقدسة فى الشرق(٧).

وكثيرا ما يتم تصوير الاسلام من المنظور السياسى على أنه يمثل تهديد للآخر , **فمفهوم الآخر** هنا لا يعنى الاختلاف فى الملامح بقدر ما يعنى الاختلاف فى العقائد والافكار كذلك نجد أن كلمة الشريعة فى المفهوم الغربى تحمل فى طياتها معنى سلبى يعبر عن التهديد الامنى لغير المؤمنين(٨).ويذكر الباحثان ديفيد بلانكس وميشيل فراسيتو عن تلك النظرة فى أوربا بالقول :" تم النظر إلى المسلمين على أنهم ملاحدة فى السياسة تارة أو أعداء للإيمان ".(٩) ويضيفا كذلك فإن إتجاهات فهم الاسلام خلال العصور الوسطى إنحصرت فى وجهتى نظر الأولى ربطت بتضخيم المسيحية على حساب الاسلام كما هو الحال فى أنشودة رولان ١١٠٠م , والأخرى منقوله عن وجهة النظر الاوربية فى العصور الوسطى عبرت عن اتجاه الكنيسة السائد آنذاك.جميعها رسخت مفهوم أن الساراسين(المسلمين) شكلوا تهديدا للمسيحية كونهم غير مسيحيين(١٠).كذلك نجد أن صورة الآخر تتميز في بداياتها بعنصرية كصورة نمطية غلبت عن الآخر، لذا كان من الواجب الذى يتوجب على العاملين فى مجال العلوم الانسانية بعامة وحقل التاريخ بخاصة المقارنة بين الصور النمطية والسياق الواقعي الحقيقى للصورة ، ومع التطور في الوعي اختلفت المنهجية التي تدرس بها صورة الآخر، فعلى سبيل المثال نجد تلك الصورة لدى المفكر إدوارد سعيد وهو من رواد الاستشراق عن الصورة الذهنية للشرق من المنظور الاوربى ربط إدوارد سعيد بين الصورة وسياقها الاجتماعي والسياسي، وهي عند تودوروف فى تناوله المختلف لرحلة أحمد بن فضلان تركز على أهداف المسافر وإطار رؤيته فضلاً عن العلاقة بين الصورة ومنبعها في الواقع، وفي رسالة ابن فضلان – أحمد بن العباس بن راشد بن حماد البغدادى (٨٧٧–٩٦٠م) , على سبيل المثال فقد قدمت صورة للحياة التي كانت عليها هذه الأمم الأوربية قبل أن تنتصر، وتمس عدداً من القبائل التركية والبدوية القاطنة في

---

(٧) أنظر :

Ian Jenkins ,writing Islam: Representation of Muhammad in Early Modern Britan,PHD Thesis, Cardiff University,UK,2007,p.1.

(٨) راجع :

Karin Creutz-Kamppi,The othering of Islam in a European Context,Nordicam Review 29,2008,2,p.295,298,299.

(٩) أنظر :

David R. Blanks & Michael Frasseto ,Western of Islam in Medieval and early Modern Weurope,New york,1999,p.84.

(١٠)

Ibid,p.56.

الساراسين Saracen ويعنى عبيد سارة زوج أبراهيم فى المفهوم الغربى للمسلمين. **"الباحث"**

سهوب آسيا الوسطى، وعدداً من الشعوب التي كانت تلعب دوراً سياسياً في تاريخ أوروبا الشرقية كالبلغار والروس والخزر[١١].

وكلمة الإستشراق مشتقة من كلمة شرق , فهو ذلك الغربى الذى يعمل على بالتدريس أو الكتابة أو أجراء بحوث فى موضوعات خاصة بالشرق . سواء كان ذلك فى الأنثربولوجيا "علم الانسان" , أو علم الاجتماع , أو التاريخ أو فقه اللغة , وسواء كان ذلك يتصل بجوانب الشرق العامة أو الخاصة.وهو بذلك وفقا لما قدمه إدوارد سعيد يشمل كلا من المستشرق الكلاسيكى القديم الذى إهتم بالجانب اللغوى بدرجة كبيرة , والاستشراق الجديد الذى يسعى لإعادة إنتاج الأطروحات التى أثارها الإستشراق الكلاسيكى ولكن فى قوالب أنثربولوجية وإجتماعية وأثرية وغيرها من الوسائل التى تبدوا أكثر حداثة [١٢].وفى الطرح الاستشراقى نلاحظ عدد من المغالطات وهى : أولا : زعمهم عدم وجود أدلة أثرية تثبت الوجود التاريخى لمحمد صلى الله عليه وسلم., ثانيا: عدم وجود مصادر أجنبية – وهذا خطأ– ذكرت إسمه وأن المصادر الاسلامية وحدها لا تكفى لدراسة سيرة الرسول الكريم [١٣].

كما نلاحظ أن لدى الشعوب صورة ما للآخر تتسم ببعض السطحية، وإذا انطلقنا من هذه النقطة فى رحلة ابن فضلان على سبيل المثال سنطرح السؤال التالي: ما هي الصورة التي كانت لدى المنتصر آنذاك – الخليفة العباسى أبو الفضل جعفر المقتدر بالله ٨٩٥–٩٠٨م– ورسله وشعبه عن تلك الشعوب؟ خاصة وأننا نجد أن ابن فضلان كان محملاً بفكر المسلمين الذين يرون العالم بفسطاطي الخير/الشر، والدليل على ذلك أن ابن فضلان كان يهتم بالتفاصيل الدقيقة ومعتقدات الشعوب التي التقى بها، ويتوقف عند الأمور التي تشكل اختلافاً دينياً، بل إنه يصفها وصفاً تفصيلياً؛ ليبين ما عليه الآخر من جهل وتخلف، وما هم عليه من تفوق[١٤].إلا أننا سنطرح الاستفهام الآخر وهو الدافع الذي ذهب من أجله ابن فضلان إلى هناك؟ حيث تشير الرواية التاريخية إلى: "**لما وصل كتاب ملك الصقالبة إلى أمير المؤمنين المقتدر يسأله فيه البعثة إليه ممن يفقهه في الدين ويعرفه شرائع الإسلام ويبني له مسجداً وينصب له منبراً ليقيم عليه الدعوة له في بلده وجميع مملكته ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له**". لذلك نحن أمام سببين للسفارة : الأول: ديني. (يفقهه في الدين...) ,أما الثاني: سياسي. (يسأله بناء حصن ...) وعندما نتأمل أن الرحلة سجلها بنفسه ابن فضلان للخليفة العباسي المقتدر –سواء أطلب منه الخليفة المقتدر بالله أم لم يطلب– فإن الكتابة كانت للسلطة، وهو الأمر الذى يحيلنا إلى ترسيخ مبدأ القوة من ناحيتي السياسة والدين، فما هو الدين الذي سيُعلمه للصقالبة وغيرهم! بأي فهم لهذا الدين؟ فنحن لا نرى إلا تطبيقات؛ فيتحول المطلق إلى نسبي، وهل يمكن أن يوجد دين دون وعي يخرجه من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل؟ فمن يقتل الناس يجد الدين في نصوصه يدعو للقتل

(١١) للمزيد من التفاصيل راجع : علاوى الخامسة : العجائبية فى أدب الرحلات , رحلة ابن فضلان نموذجا , رسالة لنيل درجة الماجستير فى الآدب العربى , جامعة قسنطينة , الجزائر , ٢٠٠٥ , ص٣٠-٣٢.

(١٢) إدوارد سعيد : الإستشراق , المفاهيم الغربية للشرق, رؤية , ترجمة د. محمد عنانى , القاهرة , مصر . دون تاريخ , ص ٤٤.

(١٣) سامح فسيح : هل وجد محمد , مركز يقين , ٢٩ يوليو ٢٠١٩ , ص١-٦.

(١٤) نفس المرجع , ص٣٣.

والطرف الآخر لا يرى القتل وهناك نصوص تدعمه، كلاهما يقرأ نفسه عبر النص من خلال محددات أخلاقية ومصلحية وتجريبية، فتُشكِل الإطار لفهم النص. من هذا نجد ابن فضلان انطلق من محددات أخلاقية ولعله يتجلى شيء من هذا في قوله واصفاً قبائل الغزية البدوية من الأتراك فيذكر : «**لهم بيوت شعر، يحلون ويرتحلون، وترى منهم الأبيات في كل مكان، ومثلها في مكان آخر، على عمل البادية وتنقلهم، وإذ هم في شقاء، وهم مع ذلك كالحمير الضالة لا يدينون لله بدين، ولا يرجعون إلى عقل، ولا يعبدون شيئاً، بل يسمون كبراءهم أرباباً، وأمرهم شورى بينهم، غير أنهم متى اتفقوا على شيء وعزموا عليه جاء أرذلهم وأخسهم فنقض ما قد أجمعوا عليه، وسمعتهم يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله تقرباً بهذا القول إلى من يجتاز بهم من المسلمين**».وهل يمكن أن نلحظ من النص السابق وخاصة حينما يضيف قوله : وسمعتهم يقولون: (لا إله إلا الله محمد رسول الله تقرباً بهذا القول إلى من يجتاز بهم من المسلمين) فهى صورة إظهار للقوة وخصوصاً أن النص يحمل تفسيره معه!.ومن تجليات المحددات الذهنية نجد صورة المرأة في مجتمع الصقالبة, فيشير ابن فضلان أنها تنزل غير مستترة لتغتسل والرجال في النهر، ويضيف فيقول: "**فما زلت أجتهد أن تستتر النساء من الرجال في السباحة فما استوى لي ذلك**", وهنا قد نجد تنميطاً للعفة, وجعل هذه الصورة التي رآها مثالاً على الخطيئة بأمارة اجتهاده بنصحهم؛ وحين نتأمل أن دوافع الاستتار عند مذهب ابن فضلان هي أن لا يزني الرجل والمرأة هي غير موجودة في بلاد الصقالبة, حيث يذكر بعدها: «**ومع هذا إذا زنى الواحد منهم ضربوا له أربع سكك وشدوا يديه ورجليه إليها.. مما يعني حرية اللباس مع وجود قانون يمنع الزنا**" ولكن ابن فضلان اعتبر الاستتار نفسه غاية ومعياراً للعفة, فصوّر الآخر بعدم العفة , إذن نحن أمام انتقاءات من ابن فضلان أراد فيها إخراج الآخر في صورة نمطية تعزز محدداته الفكرية، وهذه العملية لا تفسرها دوافع شخصية فحسب وإنما دوافع ثقافية أيضاً. والوصف هو بالضرورة وصف جزئي، وسرد أي حادثة هو اختيار شخصي يعبر عن دوافع السارد لا عن طبيع الذى يسرد حوله , ومما يعزز ذلك أن ابن فضلان أصبح يصف قبح أسماء ولغات القوم؛ مما يعني أن ثمة دوافع فوقية، والإصرار على إظهار القبح في الآخر فهو يصف لغتهم بالزقزقة والنقنقة!! وهنا سؤال آخر هل ابن فضلان أمام أشياء صحيحة انتقى منها ما يعزز محدداته الفكرية السابقة ؟ نجد ابن فضلان يصف رداءة الطقس في مدينة الجرجانية, ووصف الثلج وسمكه ١٧ شبراً، فقام ياقوت الحموي وكذب الخبر فقد ذهب إلى الجرجانية ليتأكد بنفسه ووجد خلاف ذلك [١٥].

ونتيجه لكل تلك الأمور من ضبابية الصورة حول الآخر وتأثيرها على الأحداث التاريخية بل وفى كتابة التاريخ وسرد أحداثه كان هذا البحث محاولة لتوضيع الاسباب والصورة المأخوذة عن الاسلام خلال العصور الوسطى وأثر المؤرخين الاوربيون على الاستشراق واستمرار تلك الصورة حتى العصور الحديثة بل والمعاصرة , لذلك كان هذا البحث نظرا لخلو المكتبة التاريخية العربية ببحث مستقل بذاته يتناول هذا الموضوع ,

---

(١٥) علاوى الخامسة : العجائبية فى أدب الرحلات , رحلة ابن فضلان نموذجا, ص٣٤-٣٥.

ووفقا لتلك الصورة التى رسمها ابن فضلان فى فترة متاخرة تاريخيا سيكون المبحث الأول فى ها البحث أثر التعايش على صورة الآخر خلال الحروب الصليبية يعرض الصورة الذهنية للآخر خلال الحروب الصليبية.**"الباحث"**

أما عن منهجية البحث فقد إعتمد البحث على المنهج الفلسفى التحليلى المقارن.وفيما يتعلق بتبويب البحث فهو على النحو التالى.

المبحث الأول : أثر التعايش على صورة الآخر خلال الحروب الصليبية

قبل ذكر الصورة الذهنية للإسلام خلال العصور الوسطى لابد من توضيح صورة التعايش وإختلاف النظرة للآخر خلال الفترة التى عمبرت عن الصدام على الجانبين الدينى والسياسى والعسكرى وهى فترة الحروب الصليبية (١٠٩٥-١٢٩١م) [١٦] , **فعن طبيعة الصورة الذهنية لمسيحيو الشام والصليبيين إكمالا لطبيعة**

---

(١٦) راجع :محمود سعيد عمران : فشل الحروب الصليبية وأثره على الفكر الاوربى , بحث ألقى فى مؤتمر التبادل الثقافى والحضارى بين شعور البحر المتوسط (١١/٢٩ - ١٩٩٩/١٢/١. جامعة بيروت العربية - لبنان) , ص١-٢. وللمزيد من التفاصيل حول خطاب البابا أوربان الثانى أنظر : فينان صفوت عبد اللطيف طه : الدعاية الدينية للحروب الصليبية , خطاب البا أوربان الثانى فى كليرمونت ١٠٩٥م , دراسة توثيقية تحليلية , رسالة دكتوراه غير منشورة , قسم التاريخ , كلية التربية –جامعة الاسكندرية , ٢٠٢٣م, ص١٢-١٣٤.

وللمزيد من التفاصيل حول الحروب الصليبية فى الشرق الاسلامى يرجى الرجوع إلى المصادر والمراجع التالية فعن الحملة الصليبية الاولى راجع :

Urban II, Speech at Clermont 1095 (Robert The Monk Version) From James Harvey Robinson, ed. Reading in European History, Vol. I, Boston: Ginn and Co, 1904, p. 312-14.

Anna Comena: The Alexiad, on The Crusades the Arrival of The Crusaders [10: 5] From August C. Krey The first Crusade: Accounts of Eye Witnesses and Participants, Princeton, 1921, p. 70-71.

وحول الحملة الصليبية الثانية :

Odo of deuil,De profectione LudoviciVII in orientem,ed.with English Translation by Virginia Gingerick Bery,New York,1948.

وعن الحملة الصليبية الثالثة :

Ernoul,Chronique de Ernoul et Bernard le Tresorier,ed.Mas Latine,paris,1871.

وعن الحملة الصليبية الرابعة :

Villehardouin,Geoffroii de The Conquest of Constantinople,Trans into English By Shaw Margaret,Baltimore,1963.

وحول الحملة الصليبية الخامسة أنظر :

Olivere of Padenborne,The Capture of Damieta,trans.John J.Cavigan,Philadelfhia,1948.

وحول الحملة الصليبية السادسة راجع :

Gesta Des Chiprois,R.H.C,arm,Vol.II.

وعن الحملة الصليبية السابعة أنظر :

Jean De Joinville,the life of saint Louis,trans.by M.R.B. Shaw,London,1963.

وهناك بعض المصادر العربية يمكن الرجوع إليها : ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية , القاهرة , دون تاريخ. ومنها ابن واصل: مفرج الكروب , الجزء الخامس, تحقيق محمد حسنين ربيع ومراجعة د. محمد حسنين ربيع , دار لكتب ,القاهرة,١٩٧٧ . وأنظر أيضا : ميشيل بالار: الحملات الصليبية والشرق اللاتينى من القرن الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر , ترجمة بشير السباعى , الطبعة الأولى , دار عين , القاهرة , ,٢٠٠٣, ص٢٣٧. كذلك جلال زناتى : الدبلوماسية الفرنسية للملك لويس التاسع فى جزيرة قبرص , الجمعية العربية للحضارة والفنون الاسلامية, القاهرة , العدد السادس أبريل ٢٠١٧م , ص ٧٦-٩٦. وأنظر أيضا :

صورة الآخر خلال العصور الوسطى ففي بلاد الشام الداخلية كانت تعيش تركيبة متنوعة من السكّان، من حيث الانتماء العرقي والديني على السواء، فقد كان فيها العرب والأتراك والأكراد والأرمن والزنوج، ومماليك ومهاجرون من المغرب العربي أو من بلاد فارس أو من القفقاس.وصحيح أنّ معظم السكّان كانوا من المسلمين، لكن كانت هناك طائفة مسيحية لها وجود معترف به [١٧]. **أما عن صورة الصليبيين (الفرنج) لدى سكّان الشام المسيحيين :** فلقد عاش المسلمون والمسيحيون في الشرق العربي قبل غزو الصليبيين بحالة من الانسجام حيث اعتبر المسلمون والمسيحيون أنفسهم فرعين لحضارة شرقية واحدة ينتمون إليها [١٨].

كما كان يوجد بين سكّان الشام عنصرا المسيحيين، يتوزّعون على عدّة طوائف أبرزها : الروم الأرثوذكس أو الملكانيون ، والسريان الأرثوذكس، والأرمن الأرثوذكس. وتجدر الإشارة كذلك إلى وجود بعض الفرنجة اللاتين المستأمنين وهم غالباً من الكاثوليك، كانوا يقيمون بصفة خاصّة في المدن الساحلية وذلك لمزاولة الأعمال التجارية، ومنهم من كان مستوطنًا ممّن قدم مع الحملات أو ولد في الشرق، وقد فضّل بعضهم الاستمرار في العيش في المدن المحرّرة فدخل في عقد الذمة [١٩] ، علمًا أنّ الإقامة بين المسلمين كان أمرًا محرّمًا من قبل البابا فى روما بل وينزل أقسى العقوبات كالحرمان الكنسي واللعن والطرد كليًّا من الكنيسة على من يخالف ذلك [٢٠]. لذلك سعى الصليبيين بعد تأسيس إماراتهم في سورية إلى استمالة المسيحيين الأرثوذكس واليعاقبة ، فلمّا استولوا على القدس ، حاول الملك بلدوين الأوّل سدّ الفراغ السكّاني باستقدام أعداد من المسيحيين السوريين من شرقي الأردن [٢١] ، ولكن على ما يبدو لم تثمر عملية استمالة الصليبيين الفرنج لمسيحيي سورية ، إذ أنّ هناك الكثير من الدلائل على تنامي الكراهية المتبادلة بين الجانبين [٢٢] ، فالتسامح الذي كان يعاملهم به المسلمون كان دافعًا قويًّا لمسيحيي الشرق كي يبعدهم عن الفرنجة اللاتين الذين يتبعون كنيسة غريبة لها طقوس مختلفة كما يذكر أنّه عندما حرّر السلطان صلاح الدين القدس عرض المسيحيون الأرثوذكس المساعدة من الداخل [٢٣]

Galal Zanaty, The Military Ware of The Crusade, APSSC, 187, Seoul,South Korea, 2014, p. 866-908.

(١٧) راجع : منذر محمد الحايك : نماذج من تصوّر الشاميين للآخر في عصر الحروب مع الفرنجة , منذر محمّد الحايك وكيل جامعة القلمون الخاصة , الرئيس الاسبق للجمعية التاريخية السورية , ٢٠١٢, ص١-٢٤.

(١٨) كلود كاهن : الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية , تعريب احمد الشيخ , القاهرة ، ١٩٩٥، ص ٢٥٦. يطلق لفظ الصليبيين أو اللاتين أو الفرنجة على الاوربيين الذين قدموا إلى الشرق خلال الحروب الصليبية. **"الباحث"**

(١٩) الأصفهاني (العماد محمد بن محمد بن حامد)، الفتح القسي فى الفتح القدسى , الموسوعة الشاملة لسهيل زكار , ج١٣ , دار الفكر , دمشق , ١٩٩٥، ص ١٥٩.

(٢٠) فابري (الراهب فيلكس) : جولات ورحلات فى فلسطين , الموسوعة الشاملة لسهيل زكار , ج ٤٠-٤٣ , دمشق , دار الفكر ، ص ١١٤٢.

(٢١) ر . سى سميل : فن الحرب عند الصليبيين فى القرن الثانى عشر (١٠٩٧-١١٩٣) , ترجمة محمد وليد الجلاد , دار طلاس- دمشق، ١٩٨٥، ص ٩١.

(٢٢) De Deuil,1984,p.314.

(٢٣) Runciman,1954,p.465.

, كذلك تلقّى السلطان صلاح الدين تهاني حامي الكنيسة الأرثوذكسية الإمبراطور البيزنطي إسحاق أنجيلوس – Isaac Angelus بعد استرداده لبيت المقدس , وبالمقابل نستطيع أن نقول إنّ المسيحيين في بلاد الشام لم يتعرّضوا لأي اضطهاد ، وهذا ما دفع الإمبراطور البيزنطي آندرونيكوس الأول كومنين (١١١٨-١١٨٥م) للسعي وراء تحالف يربطه بالمسلمين ضدّ الفرنجة [٢٤]. كما أثر فى ذلك ما قام به عماد الدين زنكي عندما حرّر الرها من الصليبيين الفرنج في العام ١١٤٤م/ ٥٣٩هـ ، فمع أنّه لم يرحم الفرنجة فيها فقد عامل المسيحيين المحليين بمنتهى الرأفة، وزار كنائسهم ، وكانت له علاقة حميمة مع المطران اليعقوبي للرها متّى الرهاوي [٢٥] .وبالنتيجة نرى أنّه على الرغم من رابط العقيدة الواحدة بين المسيحيين السوريين والصليبيين إلاّ أنّ روابط التاريخ واللغة والعيش المشترك مع المسلمين كانت أقوى ؛ فمع أنّ المسيحيين السوريين لم يقاتلوا الصليبيين , إلاّ أنّهم أيضًا لم يستغلّوا الظروف الصعبة التي مرّ بها المسلمون، فلم يقاتلوهم ولم يثيروا القلاقل أو يشكّلوا عقبات أمامهم.أمّا تعاون المسيحيين المحليين مع الصليبيين الفرنجة فقد اقتصر أمثلته على ما قام به الموارنة، إضافة إلى حوادث فردية قد تثير الاستغراب أكثر ممّا تعدّ دلائل على وجهة نظر محدّدة، ومنها الرواية التي أوردها المؤرخ أبو شامة فيقول : « بلغني أنّ النصارى ببعلبكّ سخّموا وسوّدوا وجوه الصور في كنيستهم على ما جرى على الفرنج، فعلم الوالي فجناهم جناية شديدة وأمر اليهود بصفعهم وضربهم وإهانتهم »[٢٦].

وبشكل عامّ، كان المسيحيون الشرقيون في الشام يشعرون بارتباط بالمسلمين، فقد كان معظم الكتبة في مصر والشام خلال عصر الحروب الصليبية من المسيحيين، وخير دليل على ذلك هو ابن الميقاط الملقّب بالشيخ أبي الفتوح الذي كان كاتب جيوش الملك العادل أبو بكر محمد بن أيوب (١١٤٤-١٢١٩م/٥٣٨-٦١٥هـ) ، وكان لديه في ديوانه « جماعة من الكتاب مسيحيون أقباط »، وكان ابن الميقاط في سفره بين الشام ومصر مرافقًا للسلطان العادل يصحب حاشيته القبطية معه، ويقومون بطقوس عباداتهم في الطريق بكل حرّية، وقد اصطحب معه القسّ داود بن يوحنا بن لقلق ليصلّي بهم » [٢٧] .ويمكننا القول أن المسيحيون الشرقيون استمروا في ولائهم المعلن للممالك الإسلامية مقابل عداء ظاهري واضح نحو الصليبيين الفرنج ,لكنّ الفرنج حصلوا على بعض التسهيلات من أفراد من السكّان المحليين بسبب المال، أو لدوافع عرقية أو طائفية.[٢٨].

أما المسيحيون العرب في المناطق الصليبية المحتلّة فكانوا يعانون من تلك الصورة السلبية فلم تكن الحدود السياسية في الشرق العربي زمن الحروب الصليبية لها أيّ معنى ديني أو عرقي، حتّى إنّه لم يكن هناك خطّ

---

(٢٤) أرنست باركر : الحروب الصليبية , ترجمة السيد الباز العرينى , دار النهضة العربية , بيروت، ١٩٦٧، ص ٨٤.

(٢٥) ر. سى سميل : المرجع السابق , ص ٩٤.

(٢٦) أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم)، ذيل الروضتين , دار الجيل , بيروت , د.ت ، ص ٣٦٥. وراجع : جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر , بيروت , دار النهضة العربية، ١٩٨١، ص ٦٧-٦٨.

(٢٧) ابن العميد (المكين جرجس بن العميد بن أبى المكارم): أخبار الأيّوبيين , مكتبة الثقافة الدينية , بورسعيد , ١٩٩٨، ص ٦.

(٢٨) كلود كاهن : المرجع السابق , ص ١١٤.

حدود واضح أو محدّد على الأرض، وعلى العموم كان الصليبيون الفرنج في غالبية أيّامهم محصورين في شريط ساحلي ضيّق ومتقطّع أحيانًا. [٢٩] , ولم يشكّل الصليبيين في مناطقهم أكثرية سكّانية، فقد كان معظم السكّان من المسلمين والمسيحيين المحليين، الذين استمرّوا في تعاطي أعمالهم السابقة، وخاصّة زراعة الأرض. فكان وجود الفلاحين المحليين ضروريًّا لوجود المجتمع والدولة، وحتّى في حال توفّر أعداد من السكّان الفرنجة اللاتين، كما في حالة المدن، فوجود السكّان المحليين ليقوموا بالأعمال اليومية ضروري، لأنّ الصليبيين كانوا مشغولين في الحروب التي تقتضي منهم حشد كل طاقاتهم البشرية المقاتلة. كلّ ذلك دفع الحكّام الصليبيين لترك حيّز واسع من حرّية العمل وربّما الإدارة الذاتية، فضلاً عن قيامهم بشعائرهم الدينية وممارسة عاداتهم وتقاليدهم بكلّ تسامح. [٣٠] لكن مع كلّ ذلك ظلّ السكّان المحليون، مسلمون ومسيحيون، ينظرون إلى الفرنجة اللاتين كغرباء، ولذلك قال عنهم وليم الصوري : « ما من عدوّ أسوأ من العدوّ المقيم بين ظهرانيك ». [٣١]

وعانت صورة المسيحيين الشاميين لدى الصليبيين بالسلبية فلم يتمكّن الفرنجة الصليبيين من احتواء نصارى المنطقة من العرب والسريان والأرمن وغيرهم، فقد كان الفرنجة يعدّون أنفسهم، كما قال وليم الصوري : رعايا المسيح، ويعدّون الأمم الأخرى أبناء الضلال [٣٢]، وهذا الضلال ينسحب أيضًا على المسيحيين الشرقيين في سورية فنظروا إليهم، في أحسن الأحوال، على أنّهم مسيحيون هراطقة مستعربون، ولم يعدّوهم بأفضل من المسلمين، فإذا قدروا على قتلهم كان به، وإلاّ فسلب كنائسهم وأراضيهم لا بأس به [٣٣]. وقد نظر الصليبيين إلى مسيحيي الشرق نظرة دونية، وعدّوهم شعبًا غير محبّ للقتال [٣٤] ، ووصف وليم الصوري السريان بقوله : « هو شعب نعتبره ضعيفًا ومخنّثًا » [٣٥].**أما عن المسيحيون الموارنة والصليبيين فبالنسبة لتصوّر الموارنة للصليبيين:** كان الموارنة يشكّلون طائفة دينية صغيرة في عصر الحروب مع الفرنجة، وقد سكنوا جانب من

---

(٢٩) ر. سى سميل : فن الحرب، ص ١٠٩.

(٣٠) s Done beyond the Sea, pWilliam of Tyr, A History of Deed.486.

(٣١) راجع : .Couiton,1938,p.322 أيضا راجع ما كتبه ابن جبير الذي زار أراضي الفرنجة ومدنهم في العام ١١٨٤م، الرحلة,ص ٥٨.

أما العبارة اللاتينية هي : « nulla enim pestis efficacior ad nucen dum quam fam liaris inimicas »

وفق ما ورد لدى المؤرخ وليم الصورى :

Wiliam of Tyr,Ibid,p.109.

(٣٢) نقلاً عن وليم الصوري : الحروب الصليبية : روايات شهود عيان، الموسوعة الشاملة لسهيل زكار , ج ٨، ٤٠١.

(٣٣) كلود كاهن : المرجع السابق , ص ٩٧.

(٣٤) Wiliam of Tyr,A history of Deeds Done beyond,p.109.

وأنظر : ر. سى سميل: فن الحرب، ص ٩٧.

(٣٥) وليم الصوري، ١٩٩٤، تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار , الموسوعة الشاملة , ج٨، ص ٤٥٩.

سفوح جبال لبنان الغربية، وكانوا منعزلين تمامًا عن المسلمين وعن الطوائف المسيحية الأخرى، فهم سريان لكنّهم لا ينتهجون العقيدة الأرثوذكسية، وفي الوقت نفسه لا يتبعون كنيسة روما الكاثوليكية بل يتفرّدون بعقائدهم. لكنّ وصول قوّات الفرنج إلى الساحل الشامي دفع الموارنة، بالرغم من استعرابهم باللغة، لاعتبار الصليبيين أقرباء لهم وأنهم سيكونون مخَلِّصين [٣٦]، فأحسنوا استقبالهم، وكانوا أوّل المرحّبين بهم. ثمّ أرسلوا وفودهم إلى روما وانضمّوا رسميًّا وشرعيًّا إلى كنيستها الكاثوليكية، وكان كلّ ذلك على يد « إيمري » بطريرك اللاتين في إمارة أنطاكية الصليبية، فقد « أعلنوا عودتهم عن الخطأ الذي كان قد استعبدهم لفترة طويلة » ولم يعانوا من تلك الصورة السلبية [٣٧].**أما عن تصوّر الصليبيين للموارنة** : واندفع الموارنة لدعم الصليبيين في معاركهم وكان لهم دور مؤثّر أحيانًا ؛ فيذكر المؤرخ وليم الصوري عن الموارنة بقوله : « لم يكن هؤلاء الناس قليلي العدد، وقدّروا بأنّهم أكثر من أربعين ألفًا، وكانوا شعبًا قوي البنية ومقاتلين شجعانًا، قدّموا فوائد عظيمة للمسيحيين في المعارك الصعبة التي كانوا قد خاضوها مرارًا مع العدو »). وردًّا لجميل الموارنة قام الصليبيين في أثناء احتلالهم للساحل الشامي « بمنح موارنة لبنان جميع الحقوق الكنسية والمدنية التي كانت لأبناء الكنيسة الرومانية الكاثوليكية » [٣٨] . ويقال إنّ عددًا من موارنة لبنان قد شاركوا الملك الفرنسي لويس التاسع في حملته على مصر، وكانت جموع منهم في استقباله في أثناء عودته إلى عكّا من الأسر، « وأرسل لهم لويس خطابًا خاصًّا يشكرهم فيه على حسن استقبالهم له » [٣٩]. كما ارتفعت في ذلك الوقت أصوات كثيرة في أوروبا تطالب بضمّ الموارنة باعتبارهم جزء من العالم المسيحي الغربي. [٤٠]

أما عن نظرة الاوربيين لمسيحيو الشام والمغول , فاذا ما تحدثنا عن تنصّر المغول فلقد نظر إليهم الاوربيون كوسيلة داعمة لوجهة نظرهم عن الاسلام خاصة أن الديانة الرسمية للمغول كانت هي الشامانية، لكنّ التجمع التتاري المغولي الذي أقامه « جنكيزخان » كان يضمّ عددًا كبيرًا من المسيحيين، هم ثمرة البعثات التبشيرية النسطورية التي توجّهت في وقت مبكّر من غربي العراق والجزيرة الشامية إلى أواسط آسيا[٤١]. حتّى إنّ قبيلتين من أكبر قبائل التجمّع هما النايمان والكرائيت كانتا قد اعتنقتا المسيحية قبل عهد جنكيزخان بوقت طويل. وهذا سبب ما شاع في الأوساط المسيحية عن وجود دولة مسيحية كبرى في أقصى الشرق، وانتشرت الأقاويل عن قوّة ملكهم يوحنا وعظمته، وما هو إلا آخر خانات الكرائيت الذي قتله جنكيزخان [٤٢].وبعدما وحّد جنكيزخان القبائل

([٣٦]) كلود كاهن : المرجع السابق , ص ٩٩.

([٣٧]) وليم الصوري، ١٩٩٤، تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار , الموسوعة الشاملة , ج ٨، ص ٤٤٤.

([٣٨]) فيليب حتي : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين , ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق , بيروت , دار الثقافة , د.ن ، ص ٢٦٢.

([٣٩]) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق , ص ٦٧-٦٨.

([٤٠]) بيير دو بوا : استرداد الأرض المقدسة , الموسوعة الشاملة لسهيل زكار , ج٣٧ , دمشق ,١٩٩٩، ص ١٤٤.

([٤١]) أرنست باركر : الحروب الصليبية , ص ١٢٥.

([٤٢]) عباس إقبال : تاريخ المغول , ترجمة عبد الوهاب علوب , المجمع الثقافى- أبو ظبى، ٢٠٠٠، ص ١٧٨.

طلب من صديقه أونك خان ملك الكرائيت ، وهم من قبائل التتار المتنصّرة، أن يزوّج ابنتيه إلى ابنيه، فكانت سيور قوقيتي بيكي لابنه تولوي،[٤٣] وعندما توفّي تولوي خان أخو أوكتاي خان قاآن التتاروأحبّهم إليه، طلب قاآن إلى زوجته سيور قوقيتي بيكي ، تدبير أمر عسكره. وكان لها أربعة بنين ثالثهم كان هولاكو ، « فأحسنت تربية الأولاد، وضبط الأصحاب، وكانت لبيبة مؤمنة تدين بدين النصرانية، تعظّم محلّ المطارنة والرهبان، وتقتبس صلواتهم وبركتهم »، [٤٤] فمع أنّ هولاكو لم يدن بالنصرانية فقد تلقّى تربية نصرانية من أمّه المؤمنة المتدينة.وعندما توفّي أوكتاي قاآن وتولّى ابنه كيوك ، كان معه أمير كبير اسمه قداق يتولّى تدبير دولته « وكان معمّدًا مؤمنًا بالمسيح »، وكان معه أمير آخر اسمه جينقاي ، فهذان أحسنا النظر إلى النصارى، وحسّنا يقين كيوك خان ووالدته وأهل بيته بالمطارنة والأساقفة والرهبانية، فصارت الدولة مسيحية، وارتفع شأن الطوائف المنتمية إلى هذا المذهب , فالدولة المغولية كانت منذ بداياتها واقعة تحت تأثير التبشير المسيحي النسطوري، ؛ ومع أنّ أحدًا من الخانات لم يعلن تنصّره فإنّهم كانوا يتقبّلون الأفكار المسيحية ويميّزون أتباعها من رعاياهم. وممّا جعل أمر المسيحية يتعاظم أكثر في البيت المالك، زواج تولوي خان من دوقوز خاتون ، وهي أيضًا من قبيلة الكرائيت المسيحية. وبعد موت تولوي خان آلت دوقوز كزوجه إلى هولاكو، فكانت الزوجة المفضّلة لديه على نسائه الأخريات، وتمتّعت بمنزلة كبيرة الشأن في الدولة وعند هولاكو ، فقد كانت قوية الشخصية، تعرف كيف تنفّذ ما تريده لذلك " وعملت على مؤازرة المسيحيين، وفي عهدها قوي حال تلك الطائفة، وكان هولاكو خان يرعاهم ويعزهم إرضاء لها". ولم تكن دوقوز وحدها من نساء هولاكو التي أعتنقت المسيحية فقد كانت « نساء هولاكو البارزات مسيحيات نسطوريات » [٤٥].

أما عن صورة المغول لدى مسيحيي الشام : فكل سبق عرضه يفسّر ما حدث في البلاد الإسلامية بعد استيلاء التتار عليها مباشرة وحتّى أبناء الطوائف المسيحية الأخرى وهي : السريان أو اليعاقبة والأرمن، فقد شعروا بتعاطف هولاكو معهم. وأصبح المسيحيون في سورية وفلسطين وآسيا الصغرى ينتظرون قدوم هولاكو بفارغ الصبر، وأسهموا في السقوط السريع لكثير من المعاقل في شمال بلاد الرافدين [٤٦] كما أنّ بعض المسيحيين، خاصّة أرمن كيليكيا والصليبيين من فرنجة أنطاكية المرتبطين معهم، وبعض مسيحيي الشام، اعتبروا أنفسهم أدلاّء للتتار. [٤٧] رغم أن السكان المسلمون كانوا يحتمون بالكنائس عند مداهمة التتار لبلدهم ، لاعتقادهم الراسخ بتعامل أصحابها مع التتار [٤٨] أمّا في دمشق فقد سمح النصارى بعد دخول التتار إليها في العام

(٤٣) رشيد الدين (فضل الله الهمذانى)، جامع التواريخ , تاريخ غازان خان , دراسة وترجمة الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد , الدار الثقافية للنشر ,٢٠٠٠ ، ص٢٠.

(٤٤) ابن العبري (غريغوريوس بن أهرون الملطى) تاريخ مختصر الدول , صححه الاب أنطون صالحانى اليسوعى , دار الرائد , بيروت , ١٩٧٨، ص ٤٣٤.

(٤٥) سهيل زكار : الحروب الصليبية روايات شهود عيان , دار حسان , دمشق، ١٩٨٤، ص ٤١٣.

(٤٦) برتولد شبولر: العالم الاسلامى فى العصر المغولى , تعريب خالد عيسى , دمشق،١٩٨٢ ، ص ٥٧- ٥٨.

(٤٧) كلود كاهن : الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ص ٢٥٦.

(٤٨) ابن شداد (عز الدين محمد بن على بن إبراهيم ت٦٨٤هـ) : الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة , تحقيق يحيى زكريا عبارة , وزارة الثقافة , احياء التراث العربى -٧٨ , دمشق, ١٩٥٣، ص ٢، ٣، ٥٦٤.

٦٥٨هـ/١٢٦٠م، « ورفعوا الصليب بها جهارًا، وألزموا الناس بالقيام له من الحوانيت، وصاحوا : ظهر الدين الصحيح » [٤٩] وتردّد القائد إيل سبان وغيره من كبارهم إلى الكنائس ؛ "وأحضر عدد من نصارى دمشق فرمان من هولاكو للاعتناء والتوصية بهم، ودخلوا بالفرمان من باب توما ،[٥٠] وصلبانهم مرتفعة وهم ينادون حولها بارتفاع دينهم واتّضاع دين الإسلام، ويرشّون الخمر على الناس وبأبواب المساجد " [٥١]. وعندما صعد المسلمون مع قضاتهم وشهودهم إلى قلعة دمشق في اليوم التالي للشكوى إلى إيل سبان ، " فأهانوهم، ورفعوا قسّيس النصارى عليهم، وأخرجوهم من القلعة بالضرب والإهانة" [٥٢] وتكرّرت هذه الصورة في العديد من مدن الشام، وأدّت إلى إضعاف التعايش الإسلامي المسيحي , وربّما كانت النتائج المستقبلية البعيدة، للعلاقات بين هذه الجماعات البشرية المحلية والمسلمين، قد انبعثت من هنا، فلم يتمكّن المسلمون من الغفران لأولئك الذين عملوا مع التتار، وهدّدوا الإسلام والحضارة بالزوال، لذلك كان القضاء المبرم على دولة أرمينية الصغرى، ونظرة الشكّ إلى النصارى المحليين الذين انحطّ شأنهم منذ ذلك الوقت.[٥٣].

أما عن نظرة الاوربيون إسماعيلية الشام والصليبيين ولقد كانت قلاع طائفة الإسماعيلية في الشام تقوم على الحدود الفاصلة بين مناطق سيطرة الصليبيين في الساحل وبين بلاد المسلمين في الداخل، كانت نقاطاً استراتيجية عسكرية على قمم جبال الساحل السوري بعد طردهم من المدن الداخلية [٥٤] ويبدو أنّ التساهل الأيّوبي معهم، وتوفير المساعدات العسكرية لهم رغم العداء المذهبي السنى الايوبى ، يبدو أن هذا الموقف من الإسماعيلية بسبب موقع بلادهم وقلاعهم التي تقوم حدّاً فاصلاً بمواجهة قلاع الصليبيين الذين أقاموا طائفتي الفرسان الاسبتارية والداوية، على حدود بلاد الإسلام. فكأنّ الإسماعيلية وجدوا في المكان المناسب الذي يخدم مصالح الإمارات والممالك الإسلامية في الشام. ولكن يبدو أنّ الكفّة كانت تميل لصالح الاسبتارية والدواية ؛ فسلاح الإسماعيلية، ، لم يكن ذا جدوى مع هذه الطوائف العسكرية، فإذا قتل لهم سيّد حلّ محلّه آخر، والإسماعيلية لا يضيّعون رجالهم بلا مقابل ،[٥٥] لذلك رضخ الإسماعيلية ودفعوا المال إلى فرسان الاسبتارية والداوية [٥٦].**وفيما يتعلق بالصورة الذهنية المتعلقة بإسماعيلية الشام للصليبيين :** فلقد سعت طائفة

([٤٩]) القدسي(محمد بن خليل الشافعى) : دول الاسلام الشريفة البهية , تحقيق صبحى لبيب وأولريش هارمان , النشرات الاسلامية /٣٧ , بيروت، ١٩٩٧، ص ٢٩.

([٥٠]) أحد أبواب دمشق، ويقع في منطقة حتى الآن معظم سكانها من النصارى. أنظر قتيبة الشهابى : معجم دمشق التاريخي , دمشق ,١٩٩٩ , ج ١، مادة : باب توما.

([٥١]) أبو شامة : ذيل الروضتين، ص ٤١٢.

([٥٢]) نفس المصدر، ص ٤١٣.

([٥٣]) كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الاسلامية منذ ظهور الاسلام حتى بداية الامبراطورية العثمانية , تعريب بدر الدين القاسم , دار الحقيقة , بيروت، ١٩٧٧، ص ٢٦٣.

([٥٤]) كلود كاهن : الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ص ١١٤.

([٥٥]) جوانفيل، سيرة القديس لويس , الموسوعة الشاملة , ج٣٥ ، ص ١٦٨.

([٥٦]) ويندوفر، ٢٠٠٠، ورود التواريخ، ص ١٧٠؛ أيضا : جوانفيل، سيرة القديس لويس، ص ١٦٨.

الإسماعيلية المسلمة الشيعية في الشام لإقامة توازن في علاقاتها ما بين الممالك الإسلامية من جهة وإمارات الصليبيين من جهة ثانية ؛ فبعد أن أمّنوا جانب الأيّوبيين في اتّفاق غير معلن، عملوا على عقد تحالفات مع الصليبيين [٥٧] ويبدو أنّ الفكرة السيئة للصليبيين عن الإسماعيلية هي التي حالت دون إتمام ذلك،[٥٨] لكنّ الإسماعيلية ما كفّت عن محاولاتها للتحالف مع الصليبيين ، وللسعي لإقامة علاقات طيبة معهم لموازنة علاقتهم بالأيّوبيين، فدعوة مقدّم الإسماعيلية نصر الفارسي في العام ١١٩٣م/ ٥٨٩هـ , للكونت هنري دي شامبين أحد أمراء عكّا لزيارته في مقرّه في أثناء مروره بطرطوس والحفاوة في استقباله، واستعراض قلاعه وطاعة رجاله العمياء أمامه، ثمّ الهدايا الثمينة التي قدّمت له [٥٩]، فما كل ذلك إلاّ بدايات مبكرة لتطلّع إسماعيلي لعلاقات جيّدة مع الصليبيين ومحاولة لكسب ودّهم.وتردّدت اتّهامات مباشرة للإسماعيلية أنّهم نفّذوا عدّة عمليات اغتيال لصالح الاسبتارية جيرانهم في جبال الساحل السوري [٦٠]، فعندما اغتالوا أمير أنطاكية ريموند بن بوهيمند في كنيسة طرطوس وذلك فى عام ١٢١٣م /٦١٠هـ [٦١] , قيل إنّ ذلك تمّ بتحريض من طائفة الاسبتارية. وعندما اغتيل بطريرك القدس في العام ١٢١٣م/ ٦١١هـ، وهو المعروف بعدائه للاسبتارية، تمّ اتّهام الاسبتارية بتحريض الإسماعيلية على قتله [٦٢]. كلّ ذلك يدلّ على مدى الضغط الذي كان الاسبتارية بمقدورهم ممارسته على الإسماعيلية، حيث يدفعون لهم أتاوى سنوية مستفيدين من عنصر الكراهية فى تلك الفترة ، وينفّذون عمليات اغتيال لحسابهم، إنّما ليس ضدّ الأيّوبيين،. ومع كلّ ذلك، فقد كانت علاقة الإسماعيلية في الشام تختلف كلّيًّا بالنسبة لملوك أوروبا القادمين نحو الشرق أو أمراء الصليبيين وملوكهم الآخرين.خاصة عندما قدم الإمبراطور

([٥٧]) كلود كاهن : الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ص ١١٤. كذلك راجع : سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا فى العصور الوسطى , دار النهضة العربية , القاهرة، ١٩٧٢، مجلّد ٢، ص ١٠٩.

([٥٨]) للمزيد من التفاصيل حول المعتقدات الأوروبية عن الإسماعيلية في العصور الوسطى راجع : فابري:جولات ورحلات فى فلسطين ، ص ١١٩٤ ؛ روجر أوف ويندوفر، ورود التواريخ , الموسوعة الشاملة لسهيل زكار , ج٤٤-٤٥، ص ١٧٠ - وقد وضع القسّ الألماني «ريكاردوس» رسالة لملك فرنسا «فيليب» السادس عندما فكّر بغزو الشرق الإسلامي في العام ١٣٣٢م قال فيها : « أذكر الحشّاشين الذين ينبغي أن يلعنهم الإنسان، ويتفاداهم، إنهّم يبيعون أنفسهم ويتعطّشون للدماء البشرية، ويقتلون الأبرياء مقابل أجر[...] وهم يغيّرون مظهرهم كالشياطين [...] وذلك أنهّم يحاكون الحركات والثياب واللغات » (برنارد لويس : الحشاشون – فرقة ثورية فى تاريخ الاسلام , تعريب محمد العزب موسى , دار المشرق العربى الكبير , بيروت ، ١٩٨٠، ص ١١) - ولذلك أصبحت كلمة حشّاشين Assassin اسمًا شائعًا في معظم اللغات الأوربية للاغتيال. وللمزيد من التفاصيل حول الحشاشين راجع :

Galal Zanaty, Strategy of Relegional and Polotical Terrorism in Middle East during Historical Ages,Comparative Study between Templars and Assassins,"Historical Theorization" Interdisciplinary Study,Jornal of Military and Strategy Studies ,Berlin,sep.2021,p.199-226.

([٥٩]) وليم الصوري، ذيل التاريخ، ص ٤٧٤.

([٦٠]) سيطر الاسبتارية على عدّة قلاع مواجهة لقلاع الإسماعيلية، منها قلعة الحصن (كراك دي شيفالييه)، وقلعة صافيتا (البرج الأبيض).

([٦١]) ابن العديم (عمر بن أحمد بن هبة الله) : زبدة الحلب من تاريخ حلب , تحقيق سهيل زكار , دمشق , ١٩٩٧، مجلّد ٢، ص ٦٣٧ ؛وأنظر : ابن واصل (محمد بن سالم بن نصر الله)، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب , تحقيق حسنين ربيع , دار الكتب , القاهرة , ١٩٧٧، مجلّد ٣، ص ٢١٩.

([٦٢]) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية , تعريب السيد الباز العرينى دار الثقافة , بيروت، ١٩٦٨، مجلّد ٣، ص ٢٤٧.

فريدريك الثاني في حملته نحو فلسطين في العام١٢٢٧/ ٦٢٤هـ، راسله مجد الدين مقدّم الإسماعيلية في الشام، ويبدو أنّه ضمَّن رسالته تهديدًا مباشرًا لشخص الإمبراطور، لذلك سارع بردّ الجواب مع رسول خاصّ، " وعلى يده هدية بما يناهز ثمانين ألف دينار لحفظ نفسه منهم "، فحلف له مجد الدين وأرسل قميصه أمانًا للإمبراطور ،[٦٣] والمبلغ الذى دفعه فريدريك مبلغ ضخم ولكنّه يدلّ على خوف أكبر من فتّاك الإسماعيلية. وهذا ما شجّع الإسماعيلية على إرسال رسلهم إلى الملك « لويس » ملك فرنسا، عندما قدم إلى الشرق، حيث التقوا به في قبرص حيث يشير المؤرخ جوانفيل مرافق الملك لويس عن هذا اللقاء الذي كان حاضرًا فيه، فيقول : " وصلت رسل شيخ الجبل، وقد حمل أحدهم ثلاثة خناجر دخلت شفرة كل واحد منها في مقبض الآخر، وقدّموها للملك شارة للتحدّي إذا لم يتمّ الاتّفاق، ولفّ الآخر حول ذراعه قطعة من قماش الكتّان وقدمها للملك لتكون كفنًا له إذا رفض مطالب شيخ الجبل. وقال الرسول للملك : مولاي يسألك إذا ما كنت تعرفه, فردّ لويس بأنه سمع عنه، فقال الرسول : "بما أنك سمعت عنه فأنا مندهش لأنك لم ترسل مبلغًا من المال لتبقيه صديقًا لك مثلما يفعل إمبراطور ألمانيا وملك هنغاريا، وإذا كان هذا لا يوافقك فعليك ترتيب أمر إعفائه من دفع الجزية للاسبتارية والداوية ".وفي المقابلة الثانية وفقا لما أورده المؤرخ جوانفيل حضر مقدّما الاسبتارية والداوية مع الملك، فتحدّثا مع الرسل بالعربية وهدّدوهم بالقتل، وطلبا منهم المغادرة والعودة خلال أسبوعين مع هدايا للملك لويس لإرضائه. وفعلاً عادت الرسل في المهلة المحدّدة ومعهم قميص شيخ الجبل، وهو تعبير عن تقرّبه للملك، وخاتمه الخاصّ وعليه اسمه، وهدايا وجواهر وتماثيل من الكريستال ربطت بها ورود من العنبر بخيوط من ذهب، فقبلها لويس وأعادهم مع كثير من الهدايا يرافقهم راهب بريطاني يجيد العربية هو إيف لي بريتون ، الذي اعتبر أنّ أهمّ اكتشاف له في بلاد الإسماعيلية هو أن شيخ الجبل لا يتّبع شريعة محمّد (ص)، بل هو من أتباع علي (رض). [٦٤].

وأما عن تصوّر الصليبيين لإسماعيلية الشام كانت العلاقات السياسية والعسكرية بين إسماعيلية الشام وجيرانهم صليبى الساحل الشامي تحمل في طيّاتها الكثير من التناقض، أو بشكل أصحّ كانت العلاقات القائمة بينهما مبنية على المصالح المتبدلة دومًا والمتناقضة أحيانًا، وربّما كان هذا النوع من العلاقات هو سبب تضارب معلومات مؤرّخي الصليبيين عن الإسماعيلية ؛ حيث يذكر عنهم بورتشارد راهب جبل صهيون : " هناك مسلمون اسمهم الحشيشية يسكنون الجبال وراء طرطوس، ويملكون عددًا من القلاع والمدن مع أراض خصبة، ويقال إنّ لديهم أربعين ألف مقاتل، ولديهم مقدّماً واحداً لا يلي بحقّ الوراثة بل بسبب الفضائل الشخصية، واسمه شيخ الجبل، ويقال إنّهم من أصل فارسي، وهم مرعبون لجميع من حولهم ". [٦٥]. ولكنّ تعداد مقاتليهم المذكور فيه مبالغة هائلة، كما أنّ الأصل الفارسي ينطبق فقط على المقدّمين، بينما الأتباع، كانوا خليطًا عرقيًّا، فهم محليون من المناطق القريبة من إنتشار الفرقة.**ومن جانب أخر وما يتعلق ببدو الشام والصليبيين , نلاحظ أن تصوّر عربان البدو للصليبيين** فمنذ بدايات الغزو الصليبى لبلاد الشام وجد الصليبيون من يتعاون معهم من البدو، وقد

(٦٣) ابن نظيف : التاريخ المنصوري، ص ١٥١.

(٦٤) جوانفيل، سيرة القديس لويس ، ص ١٦٧- ١٦٨.

(٦٥) بورتشارد (راهب جبل صهيون) : مذكرات , الموسوعة الشاملة , ج٣٩ , دار الفكر –دمشق , ٢٠٠٠، ص ٢٤٢.

تجلّى هذا التعاون فى حصار أسوار حلب في العام ١٢٢٤/ ٥١٨هـ عندما حاصر الصليبيون المدينة وبدا لهم أنّ سقوطها سيفتح أمامهم أبواب سورية الداخلية، فاتّصلوا مع دُبَيس بن صدقة، صاحب الحلة في العراق وأمير بني أسد، واتّفقوا معه على أن يساعدهم لاحتلال حلب. كما اتّفقوا مع سالم بن مالك العقيلي، سيّد بني عقيل وصاحب قلعة جعبر، وساندت قوّات القبائل العربية القوّات الصليبية فى الهجوم على حلب، وارتكبوا الفظائع ونكلوا بالموتى، حتّى جاء البرسقي أمير الموصل وأنقذ حلب. [٦٦] وكان هذا التعاون اختبارًا مفيدًا للصليبيين تعرّفوا فيه على إمكانية التعامل مع البدو والاستفادة من قوّتهم العسكرية مقابل بعض المكاسب الاقتصادية يحصل عليها البدو.

وفي بدايات دولة صلاح الدين يوسف وعندما كان مشغولاً في الجزيرة يحاصر حرّان في العام ١١٩١م/ ٥٧٨هـ , قامت حملة صليبية من الكرك وتوجهت نحو الحجاز، " لينبشوا الحجرة النبوية، وينقلوه إليهم ويأخذوا من المسلمين جعلاً على زيارته"،[٦٧] وسارت الحملة في مراكب من ميناء العقبة، حتّى وصلت ساحل المدينة " ودلها على عورات الساحلين من العرب من أشبه ركابها في الكفر" ،[٦٨] وكان معهم طائفة من مرتدّة العرب ، ولمّا كان صلاح الدين لا يستطيع الحركة، كلّف نائبه بمصر سيف الدولة بن منقذ، فسيّر الحاجب لؤلؤ الأرمني " فتداركهم، وبذل الأموال، فمالت إليه العرب للذهب"، فاستسلم الصليبيين [٦٩] وفي أثناء حملة ملك إنجلترا ريتشارد قلب الاسد على فلسطين، كان يعسكر قرب قلعة النطرون، فوصل إليه اثنان من البدو، وأخذا من الملك الأمان والثقة، وأقسما له يمينًا تعهّدا به بأنّهما سيخدمانه بإخلاص وسيطلعانه على كمائن جيش صلاح الدين، وعن كل ما يدور حول صلاح الدين وجميع أهل البلاد" [٧٠]ويبدو أنّ الملك ريتشارد قد أعجبه موضوع استخدام البدو، وأنّه اهتمّ بهم أدلاّء وجواسيس مأجورين واعتمد عليهم، وسيّرهم يتسقّطون له الأخبار، فعلم منهم بمسير قوافل مصر نحو الشام، " وكان العدو يترقب أخبارهم ويتوصل إليها بالعرب المفسدين "،[٧١] واندمج الملك ريتشارد باستراتيجيته مع البدو، ووثق بهم إلى درجة كبيرة، حتّى إنه " ركب مع العرب بجمع يسير، وسار حتّى أتى القفل فطاف حوله في صورة عربي ". [٧٢] , وبلغ تعامل البدو مع الصليبيين حدًّا أزعج صلاح الدين يوسف إلى درجة أنّه قاد حملة خاصة في العام ١١٧٣/ ٥٦٨هـ لطرد البدو من منطقة الكرك، لمنعهم من مساعدة

([٦٦]) سهيل زكار : الحروب الصليبية ، مجلّد ٣، ص ٢٦٠-٢٦١.

([٦٧]) البغدادي (موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف المعروف بابن اللباد)، تاريخ البغدادي ورحلته , الموسوعة الشاملة , ج١٤،ص٨٨.

([٦٨]) من رسالة للعماد الأصفهاني في : أبو شامة، الروضتين، ص ٤٣٥.

([٦٩]) البغدادي، تاريخ البغدادي ورحلته، ص ٨٨.

([٧٠]) وليم الصوري، ذيل التاريخ , الموسوعة الشاملة , ج٨ دار الفكر , دمشق , ١٩٩٥، ص ٤٣٤.

([٧١]) ابن شداد (يوسف بن رافع بن تميم) : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية , تحقيق جمال الدين الشيال , الدار المصرية للتأليف والترجمة , القاهرة , ١٩٦٤ ، ص ٢٣٢.

([٧٢]) نفس المصدر , ص٢٣٢.

الصليبيين الذين استخدموهم جواسيس وأدلاء ، [٧٣] وهي أوّل حملة لصلاح الدين من مصر، وكانت في عهد نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى ، لذلك أرسل له صلاح الدين رسالة من إنشاء القاضي الفاضل يشرح له فيها أسباب هذا التحرّك العسكري، قال : "علم المملوك بما يؤثره المولى، فإن يقصد الكفّار بما يقصّ أجنحتهم، ويفلّ أسلحتهم، ويقطع موادّهم، ويخرّب بلادهم، وأكبر الأسباب المعينة على ما يرومه من هذه المصلحة أن لا يبقي في بلادهم أحد من العربان، وأن ينتقلوا من ذلّ الكفر إلى عزّ الإيمان، ومن اجتهد فيه عامة الاجتهاد، وعدّه أفضل أسباب الجهاد، ترحيل كثير من أنفارهم، والحرص في تبديل ديارهم، إلى أن صار العدو اليوم إذا نهض لا يجد بين يديه دليلاً، ولا يستطيع حيلة، ولا يهتدي سبيلاً" [٧٤].

ونلاحظ رغم معاناة المسلمون الشديدة فعانوا من تعامل البدو مع أعدائهم وإطلاعهم على عوراتهم، لم يجد لها صلاح الدين حلاً سوى نقل قبائل البدو من مواقع إقامتهم إلى داخل بلاده لقطع اتّصالهم بالعدوّ الصليبى. ثمّ أصبحت هذه السياسة عامّة يطبقّها صلاح الدين حيثما شكّ بتعامل البدو مع الصليبيين ؛ مثلما فعل صلاح الدين فى عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ بنقل بني ثعلبة من منطقة غزّة إلى مصر لأنهم كانوا يتعاملون مع الصليبيين كأدلاّء وجواسيس،[٧٥] فقد « كانوا يدًا مع الفرنج على المسلمين » [٧٦] , ومع أنّ صلاح الدين لم يتوقّف عن الاستعانة بالبدو كقوّات خفيفة الحركة لمساندة جيشه، لكنّه تعلّم بعد هزيمة الرملة أنّهم سلاح ذو حدّين، فما إن لاحت الهزيمة حتّى انقلبوا على جيش صلاح الدين ينهبون أثقاله ومتاعه [٧٧].

وأجمع المؤرّخون أنّه كان للأعراب موقفٌ مخزٍ في معركة دمياط في العام ١٢١٨م/ ٦١٥هـ فقد كان الملك الكامل مرابطًا بجيش مصر أمام الصليبيين الزاحفين لاحتلال دمياط، وكان أبوه الملك العادل في الشام يجمع

---

(٧٣) أبو شامة، عيون الروضتين , الموسوعة الشاملة , ج١٩ , دمشق ١٩٩٥، ص ٢٠٦.

(٧٤) ابن واصل، مفرج الكروب، مجلّد ١، ص ٢٢٥ ؛ أبو شامة، عيون الروضتين، ص ٢٠٦.

(٧٥) القلقشندي (أحمد بن على بن أحمد) :قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان , تحقيق إبراهيم الإبيارى , دار الكتب الحديثة , القاهرة , ١٩٦٣، ص ٨٣؛ و المقريزي (أحمد بن على بن عبد القادر) :البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ,تحقيق عبد المجيد عابدين , دار المعرفة الجامعية , الاسكندرية , ١٩٨٩ ، ص ٥ ؛ القلقشندي :صبح الأعشى فى صناعة الإنشا , الهيئة المصرية العامة للكتاب , القاهرة , ١٩٨٥، ج ١، ص ٣٢٢ ؛ أبو شامة، عيون الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية , الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة , ١٩٦٢ , ص ٥٢٦.للمزيد من المعلومات حول الامن والتجسس فى العصور الوسطى راجع : جلال زناتى : قراءة فى مفهوم الأمن والتجسس وأنواعهما فى الشرق الاسلامى والغرب الاوربى فى العصور الوسطى (٦١٠-١٥١٧م) , مجلة دراسات كردية , العدد ٢١ , العراق , ٢٠١٩م. أيضا جلال زناتى: موسوعة شفرة المخابرات والجاسوسية,المجلد الاول , الجزء الثالث , دار حورس , الاسكندرية , ٢٠٢٢.

(٧٦) العمري (ابن فضل الله شهاب الدين أحمد بن يحيى) :قبائل العرب فى القرنين السابع والثامن الهجريين , تحقيق دوروتيا كرافولسكى , المركز الاسلامى للبحوث , بيروت , ١٩٨٥، ص ١٠٧ ؛ المقريزي، البيان والإعراب، ص ٥ - وقد وهم عبد المجيد عابدين بتعليله نقلهم من جنوب فلسطين إلى مصر، واعتقد أنهّا مكافأة قدّمها صلاح الدين لهم، يقول : « وكان لقبائل طيء فضل كبير في محاربة الصليبيين، فأراد صلاح الدين أن يكافئهم، فنقل منهم جرمًا وثعلبة إلى الحوف الشرقي » (دراسات في تاريخ العروبة : ملحق البيان والأعراب، ص ١١٦).

(٧٧) السيد الباز العريني : الشرق الأدنى فى العصور الوسطى- الأيوبيون ,دار النهضة العربية , بيروت ، ١٩٩٧، ص ١٦٦.

النجدات ويوجّهها إليه، وفي هذه الأثناء مات العادل، وما كادت الأخبار تتسرّب إلى مصر بموته " حتى وقع الطمع في الملك الكامل، وثارت العرب بنواحي أرض مصر، وكثر خلافهم واشتد ضررهم" [٧٨] "ولما عبر الفرنج إلى أرض دمياط اجتمعت العرب على اختلاف قبائلها، ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط، وقطعوا الطريق، وأفسدوا، وبالغوا في الإفساد، فكانوا أشدّ على المسلمين من الفرنج"[٧٩] مع أنّ تصرّف قبائل البدو هذا لا يمكن أن يبرّره أيّ عذر نضعه لهم، لكنّه قد يبدو ردّ فعل على معاناة طويلة من ظلم السلطة الأيّوبية، التي ما إن انشغلت عنهم بالصليبيين حتّى ثاروا عليها ونهبوا ما حولهم ؛ وقد يفسّر الأمر بأنّها طبيعة البدو وفطرتهم بالسلب والنهب، فما إن وجدت لها متنفّسًا حتّى انطلقت. ولكن مهما كان السبب فهو غير مهمّ بجانب فعلهم المنكر الذي لا يمكن تبريره إلا بجهلهم المطلق لأيّ مصلحة عامّة هي مصلحتهم في ما بعد. وبالتأكيد لم يكونوا ليدركوا حجم البلاء الذي يسبّبونه للبلاد، فبلغ الاستياء الرسمي والشعبي من البدو في تلك الآونة مبلغًا كبيرًا، حتّى إنّ بعض الناس وقتها رأوا أنّ الصليبيين أرحم من البدو [٨٠]. ويبدو أنّ قوة الملك الصالح نجم الدين أيّوب منع تكرار حوادث البدو في حملة الملك الفرنسى لويس التاسع على دمياط واحتلاله لها. لكن ما إن تلوح الفرصة حتّى يعود البدو إلى عاداتهم التي لا يبدّلونها، فبعد أن أحرق المسلمون الجسور التي بناها « لويس » للعبور عليها من أجل الهجوم على المسلمين، جاء بدوي إلى معسكره وأخبره أنّ بإمكانه أن يدلّه على مخاضة تمكّن جيشه من العبور إلى جهة المسلمين، شريطة أن يعطيه خمسمائة دينار، ودفع لويس المال، وعبر الجيش الصليبى وفاجأوا المسلمين في معسكرهم [٨١]؛ ويضيف المؤرخ « جوانفيل »ويورد ما حدث، فيقول : " بعدما هزمنا المسلمين وطردناهم من خيمهم وتركوا مخيّمهم فارغًا اندفع البداة للقيام بنهبه، ولم يترك اللصوص خلفهم شيئًا، بل حملوا كلّ شيء خلفه المسلمون ... ومن المعروف أنّ عادة هؤلاء القوم عدّ الجانب الضعيف صيدًا حلالاً لهم » [٨٢].)كذلك كان السلطان صلاح الدين يعرف قيمة البدو كأدلاّء فنجدهم يتقدّمونه في مسيره ، [٨٣] ثمّ يسلّطهم على معسكرات العدوّ فيقضّون مضاجعهم، وينهبون ما وصلت إليه أيديهم، حتّى إنّهم في أحد الأيام أحضروا للسلطان كنيسة المعسكر الصليبى وهي خيمة كبيرة [٨٤]، وهذا دليل على جسارتهم على العدوّ واقتحامهم لمعسكراته، إذ فكّوا خيمة الكنيسة من وسط المعسكر وحملوها.وعندما كان السلطان صلاح الدين مرابطاً أمام الصليبيين على حصار عكّا بلغه أنّ جمعًا من الصليبيين يخرجون للاحتطاب وللاحتشاش من طرف

([٧٨]) المقريزي السوك لمعرفة دول الملوك , نشره محمد مصطفى زيادة , القاهرة ، ١٩٥٧، السلوك، ص ١، ٣١٤.

([٧٩]) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٢ , ص٣٢٦.

([٨٠]) المقريزي، السلوك، ص ١، ٣٢٠ - بعد أن احتلّ الفرنج دمياط أرسل الكامل يجمع المتطوعين من القاهرة، ولإثارة حماسة الناس أبلغوهم أنّ ملك الفرنج قد أقطع ديار مصر لأصحابه، فقال الشاعر الشعبي : يهدّدونا بأهل عكّا أن يملكونا وأهل يافا ومن لنا أن يلوا علينا فالروم خير من الريافا.

([٨١]) جوانفيل، سيرة القديس لويس، ص ٣٦، ٨٨.

([٨٢]) جوانفيل، سيرة القديس لويس، ص ٣٦، ٩٩.

([٨٣]) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٢٥٣.

([٨٤]) أبو شامة، عيون الروضتين , الموسوعة الشاملة , ج١٩، ص ١٩٤.

النهر،" فأكمن لهم جماعة من العرب، وقصد العرب لخفّتهم على خيولهم وأمنه عليهم، فخرجوا ولم يشعروا بهم " [٨٥] " وحالوا بينهم وبين خيامهم ", [٨٦] "وهجموا عليهم وقتلوا منهم خلقًا عظيمًا، وأسروا جماعة وأحضروا رؤوسًا عدّة". [٨٧]

وفي عام ١٢٤٩م/ ٦٤٧هـ , بعد أن احتلّ الصليبيون مدينة دمياط، استنفر الملك الصالح أيّوب الناس، « فوصلت عربان كثيرة جدًّا وأخذوا في الغارة على الفرنج ومناوشتهم". [٨٨] **.أما صورة البدو لدى الصليبيين فكانت سلبية لدى كلا الجانبين المسلمين والصليبيين** ويتّضح هذا الخوف من خلال الصورة التي نقلها عن البدو مؤرّخو الصليبيون فيقول عنهم بورتشارد » الراهب لجبل صهيون : " البدو يملكون أعدادًا كبيرة من الماشية ويقومون برعايتها، لا يمتلكون مكانًا دائمًا للإقامة، يقصدون المراعي ويقيمون خيامهم [...] مقاتلون متفوّقون، يحبّون الحرب ويستخدمون السيف والرمح في المعركة ولا يستخدمون النشاب، ويقولون إنّها دناءة أن تنتزع حياة إنسان بواسطة سهم، وهم شجعان، ولا يرتدون إلاّ قميصاً فوقه عباءة فضفاضة ويغطّون رؤوسهم بقطع قماش". [٨٩] كما يذكر عنهم الراهب الدومينيكاني الرحالة فيليكس فابري بقوله : " إنّ البدو يزجّون أنفسهم في أعظم المخاطر من دون خوف، لاعتقادهم بأنّ الموت أمر مقضي من الله لا يمكن تجنّبه ». [٩٠] ويذكرهم جوانفيل بقوله : " ولا يعيشون في قرى أو مدن، بيوتهم أكوام مربوطة إلى أعمدة، عليها جلود أغنام معالجة بالشب، يرتدون عباءات من الصوف يلفّون أنفسهم بها، ويعتقدون أنّ الإنسان لا يموت قبل اليوم المحدّد له، فلذلك يرفضون لبس الدروع، وشتيمتهم : "عليك اللعنة مثل فرنجي يلبس الدروع خوفًا من الموت" ؛ [٩١]ويلخّص الرحالة فيليكس فابري صورة البدو فى تلك الفترة التاريخية فى النظرة إلى البدو في خلال العصر الأيّوبي بقوله : " إن البدو مكروهون من المسلمين والمسيحيين سواء". [٩٢].

وبالنسبة للصورة الذهنية لمؤرّخي الشام لبابوات روما فلقد شبّه المؤرّخون المسلمون مركز البابا الديني بالنسبة للمسيحيين في أوروبا بمركز الخليفة في ديار الإسلام، حتّى إنّهم كانوا يسمّونه أحيانًا : خليفتهم البابا [٩٣] وقد أدركوا أنّه رأس النصرانية الغربية الديني، فقد وصفوه بأنه : إمام رومية ولذلك كان جزء كبير من تقديرهم

([٨٥]) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ١١٦.

([٨٦]) الأصفهاني، الفتح القسي , الموسوعة الشاملة , ج١٣، ص ٢٠٧.

([٨٧]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢، ص ٢٩٤.

([٨٨]) المقريزي، السلوك، ص ١، ٤٣٩.

([٨٩]) بورتشارد : مذكرات , الموسوعة الشاملة ج٣٩، ص ٢٤٢.

([٩٠]) فابري :جولات ورحلات، ص ١١٩٤.

([٩١]) جوانفيل، سيرة القديس لويس، ص ١٠٠.

([٩٢]) فابري، جولات ورحلات، ص ١١٩٤.

([٩٣]) ابن نظيف : التاريخ المنصوري، ص ١٩٤.

للامبراطور فريدريك ينبع من علاقته السيئة بالبابا وخلافه معه وقد ساعد الامبراطور فريدريك بنفسه على هذه النظرة من خلال مقارنة طريفة أجراها بين البابا والخليفة العباسي في أثناء الحديث مع فخر الدين بن الشيخ [٩٤] وكان المسلمون يعرفون أيضًا أنّ البابوية قد تحوّلت إلى منصب سياسي أكثر منه ديني، فقد تحدّث مؤرّخو المسلمين عن حروب البابا مع الإمبراطورية الجرمانية، وردّدوا أنباء انتصارات فريدريك على البابا وإخضاعه له، [٩٥] وعرفوا أنّ البابا لا يقوم بالمؤامرات السياسية فقط ضدّ خصومه بل يلجأ إلى تنظيم الاغتيالات السياسية ضدّهم إذا لزم الأمر، فقد ذكرت عدّة روايات أنّ البابا قد اتّفق مع بعض خواصّ الإمبراطور فريدريك الثاني لاغتياله وهو نائم، ولكنّ فريدريك علم بالأمر من عيونه فقتل المتآمرين. [٩٦] كذلك ذكروا هزيمة مانفريد بن فريدريك أمام قوّات البابا الذي تحالف مع الكونت شارل دي أنجو شقيق لويس التاسع مقابل تسليمه صقلّية، فهاجماها وأسرا « مانفريد »، ويصف ابن واصل نهاية الإمبراطور بقوله : « وتقدّم البابا بذبحه فذبح ». [٩٧].وكانت البابوية متشدّدة بشأن الاتّصال المباشر بالحكّام المسلمين، فقد كان أكثر ما أخذه البابا على الإمبراطور فريدريك الثاني هو علاقته بالسلطان الكامل ومعاهدته معه، ولكن على ما يبدو فإنّ البابا اضطرّ أن يسلك سلوك فريدريك عينه دون أن يجد أي حرج، فقد أرسل البابا إلى السلطان الصالح نجم الدين أيّوب يطلب منه أن يمنح الصليبيين في فلسطين معاهدة سلام أو على الأقل هدنة، فردّ عليه أيّوب أنّ العلاقة المميّزة بين السلطان والإمبراطور، والعلاقة المتوتّرة بين البابوية والإمبراطور لا تمنحه حرّية عقد هذا الاتّفاق دون معرفة رأي الإمبراطور، وأنّه قد أرسل إلى بلاط الإمبراطور وسوف يبلغه الردّ. [٩٨] فالسلطان الصالح نجم الدين أيّوب لم يرد تقديم خدمة مجانية للبابا تدعم نفوذه في العالم المسيحي دون الرجوع للإمبراطور لمعرفة رأيه، وكأنّ الصالح نجم الدين أيّوب لا يريد أن يضحّي بصداقة الإمبراطور وبالتحالف معه، خاصّة بعد مرور زمن طويل على هذا التحالف أثبت خلاله إخلاصه، بعلاقة غير مضمونة مع البابوية التي لا تخجل من إظهار عدائها الدائم وتحريضها ضدّ المسلمين.

([٩٤]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٤٧ – حيث يخبرنا المؤرخ ابن واصل : « بلغني أنّ الإمبراطور لمّا كان بعكّا قال لفخر الدين ابن الشيخ : "أخبرني عن الخليفة الذي لكم، ما أصله ؟" فقال : "هو ابن عمّ نبيّنا محمّد (صلى الله عليه وسلم)، أخذ الخلافة عن أبيه وأخذها أبوه عن أبيه، فالخلافة مستمرّة في بيت النبوة لا تخرج منهم." قال الإمبراطور : "ما أحسن هذا، لكن هؤلاء قليلو العقول، - يعني الفرنج- يأخذون رجلاً من المزبلة، ليس بينه وبين المسيح نسبة ولا سبب، جاهلاً فدمًا (الفدم : العيّ عن الحجّة والكلام، وهو الأحمق - لسان العرب، مادة : فدم) يجعلونه خليفة عليهم، قائمًا مقام المسيح فيهم، وأنتم خليفتكم ابن عمّ نبيّكم فهو أحقّ الناس بمرتبته". (مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٥١).

([٩٥]) ابن نظيف : التاريخ المنصوري، ص ٢٤٨.

([٩٦]) ابن الجوزي (السبط أبو المظفر يوسف بن قزاوغلى) : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان , حيدر أباد ١٩٥١ ، ج ٨, ص٢, ص٧٦٠. ؛ الذهبي(محمد بن أحمد بن عثمان) : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام , تحقيق بشار معروف وآخرون , مؤسسة الرسالة , بيروت , د.ت، ص ٦٤١-٦٥٠ ؛ و ابن كثير (إسماعيل بن عمر الدمشقى)، البداية والنهاية تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرون , دار الكتب العلمية , بيروت , د.ت، ج ١٣ ,ص١٧١ ؛ و ابن الجزري (محمد بن إبراهيم بن أبى بكر) : المختار من حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الاكابر والأعيان من أبنائه , تحقيق خضير المنشداوى , دار الكتاب العربى , بيروت ,١٩٨٨، ص ٢٠٤.

([٩٧]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٥١ - راجع تفاصيل الصراع بين البابوية وأباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدّسة من أفراد أسرة «هوهنشتاوفن» في :سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا فى العصور الوسطى، ج ١، ص ٥٥٩.

([٩٨]) متى باريس، التاريخ الكبير, الموسوعة الشاملة ج ٤٦-٥٠ , ٢٠٠١ , ج٤٨، ص ٨٩٩.

ومجمل القول كانت العلاقات المباشرة بين البابوية والممالك الإسلامية شبه معدومة، لتعنّت البابوات وتعصّبهم ضدّ علاقة كهذه، لكنّ العلاقات غير المباشرة كانت واسعة وذات تأثيرات فعالة جدًّا، فالحملة الرابعة حرّفتها رغبة البابا عن الشرق الإسلامي، والحملة الخامسة كان من أهمّ أسباب فشلها تصدّي النائب البابوي لقيادتها، وبالمقابل كانت معاهدة الكامل مع الامبراطور فريدريك وتسليم القدس أمضى سلاح استخدمه فريدريك لمقاومة البابا والنصر عليه. أمّا التحريمات واللعنات التي كان يطلقها البابوات على الدوام ضدّ كل من يتاجر مع المسلمين أو ينقل إليهم موادّ تدعم مجهودهم الحربي(٩٩).

على أيه حال تلك كانت الصورة التى رسمت فى الشرق من قبل الاوربيين للقاطنين فى الشرق الاسلامى والتى غلب عليها العداء فى معظمه أو إيثار المنفعة والمكاسب فى أحيان أخرى , وهو الامر الذى يدفعنا للحديث عن الصورة التى دونت عن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وعن الاسلام فى كتابات المؤرخين التاريخية خلال العصور الوسطى وهو الامر الذى سيرد فى المبحث الثانى من هذا البحث.

المبحث الثانى : صورة الرسول محمد والاسلام فى الكتابات التاريخية

ألهمت شخصية الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم الكثير من الباحثين في الشرق و الغرب، فدرسوا سماتها بفيض من المؤلفات التي صورت حياة محمد عليه الصلاة والسلام و تناولت جوانب عظمته و عبقريته، و صفة البطولة الملحمية في سيرته عبر دعوته التي أحدثت انقلابا في حياة تلك القبائل العربية المتناحرة فعمقتها امةً رائدةً أخذت بيد أمم و شعوب في معارج الرقي و التقدم.وفى ذلك يذكر المستشرق الهولندي رينهارت دوزي (١٨٢٠-١٨٨٤) مؤلف تاريخ الدولة الإسلامية في الأندلس و المغرب، يقول في في كتبه "عرب أسبانية" : "... كان يوجد على عهد محمد في بلاد العرب ثلاث ديانات : الموسوية و العيسوية و الوثنية".ثم يضيف واصفا عادات الوثنين حتى انتهى الى القول : " في عهد هذه الأحوال الحالكة، ووسط هذا الجيل الشديد الوطأة، ولد محمد بن عبد الله في شهر أغسطس ٢٩ منه عام ٥٧٠ و لقد عرفت الفترة السابقة لظهور الإسلام، لدى المؤرخين العرب "بالجاهلية"، وذلك استنادا للوصف الذي أطلقه القرآن على تلك الحقبة السابقة لدعوة النبي، تدليلا على ما آلت إليه أحوال شبه الجزيرة العربية من تدهور سياسى وانحطاط على الجانبين الاخلاقى والاجتماعى(١٠٠).

و لقد كتب باحث غربي عن الوضع الذي آلت أليه الحضارة الإنسانية قبل ظهور الدعوة الإسلامية بقوله :" في القرنين الخامس و السادس، كان العالم المتمدين، على شفا السقوط في هاوية الفوضى، لان العقائد التي تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت، و لم يك ثمة ما يعتد به مما يقوم مقامها و كان يبدو وقتئذ أن المدينة الكبرى التي تكلف بناؤها جهود أربعة ألاف سنة مشرفة على التفكك و الانحلال ، و أن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية إذ أن القبائل تتحارب و تتناحر، فلا قانون و لا نظام. أما النظم

(٩٩) أرنست باركر : الحروب الصليبية، ص ١٠٧.

(١٠٠) محمد شريف الشيبانى : الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة , موقع صيد الفوائد , ٢٠٢١, ص١-٢.

التي خلفتها المسيحية فكانت تعمل على التفرقة و الانهيار، بدلا من الاتحاد و النظام فكانت المدينة التي تشبه شجرة ضخمة متفرعة، امتد ظلها إلى العالم كله، واقفة تترنح، و قد تسرب إليها العطب حتى اللباب ، و بين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي وحد العالم المعروف جميعه" (١٠١).هذا و تتفاوت مواقف المستشرقين والباحثين الغربيين من مسألة حقيقة الوفود ، بين التصديق والإنكار والدهشة والإعجاب ، والتشكيك في صحة الأمر . . . رغم ثبوتها وخاصة بعد العثور على الرسالة التي وجهها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس حاكم مصر ، فذيكر غوب باشا الباحث العسكري : "حكم بعض المؤرخين المعاصرين أثاروا بعض الشكوك في موضوع الرسائل فليس هناك في ما حفظ عن حياة النبي ما يشير أن النبي قد تصور أو توقع احتلال سورية وفارس . ولقد أدهشت الانتصارات العظيمة التي حققها العرب بعد وفاة النبي المسلمين أنفسهم ، وهي انتصارات ما كانت لتتحقق لولا أن النبي قد تنبأ بوقوعها . لكن مارية القبطية كانت من الناحية الأخرى شخصية تاريخية..." (١٠٢).

وتنبغى الاشارة هنا إلى أن سياسة التسامح الديني التي اتبعها الرسول صلى الله عليه وسلم تجاه أصحاب الديانات الأخرى غدت قاعدة لخلفاء الرسول ، في ظل الدولة ألإسلامية المترامية الاطراف التي ضمت أمما مختلفة وأصحاب ديانات ظلوا يمارسون شعائرهم في ظل الحماية الإسلامية دون تعصب، وكان لسياسة هذه التسامح أن حظيت باحترام وتقدير المفكرين والمستشرقين المنصفين فعقدوا المقارنة بن تسامح الإسلام وتعصب الصليبيين ، فيقول المستشرق ميشون في كتابه تاريخ الحروب الصليبية : "إن الإسلام الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى ، وهو الذي أعفى البطاركة والرهبان وخدمهم من الضرائب وحرم قتل الرهبان _على الخصوص _ لعكوفهم على العبادات ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس.و قد ذبح الصليبيون المسلمين و حرقوا اليهود عندما دخلوها" (١٠٣).

ومن بين هؤلاء الذين أنصفوا الرسول صلى الله عليه وسلم وأعطوه بعض حقه ، نجد الدكتور مايكل هارت صاحب كتاب : الخالدون المائة ، الذي يشدنا إلى أن نقف معه عند نظرته العلمية ، التي وضعها لتصنيف عظماء التاريخ ، ضمن سلم ترتيبي ، اختاره حسب مقاييس منطقية يمليها أولاً وأخيراً ، أثر هذه الشخصية في التاريخ في مرحلتها ، وفي تكوين اتجاهات المراحل التالية وديمومة هذا الأثر , وكان منطلق مايكل هارت يرتكز على النقاط الثلاث التالية : الأهمية الأولى للأشخاص الذين أثروا في التاريخ تأثيراً دائما سواء في ذلك الشخصية المشهورة أو المغمورة أو الشريرة ، المتواضعة أو المغرورة ., الاعتماد في تصنيفه السابق على الشخصيات التي أثرت على الصعيد العالمي وعدم الأخذ بالشخصيات التي أثرت على الصعيد المحلي, وفي تقرير مكانة الشخص ، أخذ الباحث بعين الاعتبار أهمية الحركة التاريخية التي أسهم بها ، رغم إدراكه أن ضرورة حركة التطور التاريخية ليست ناجمة عن عمل أفراد (١٠٤).وتبعاً لهذه المعايير العلمية التي وضعها هذا

(١٠١) نفس المرجع , ص٣-٤.
(١٠٢) نفس المرجع , ص٤.
(١٠٣) نفس المرجع , ص٥.
(١٠٤) مايكل هارت : المائة الأوائل ,ترجمة أنيس منصور , الهيئة المصرية العامة للكتاب –مكتبة الاسرة , القاهرة , ٢٠٠٢، ص ٩-١٠.

الباحث لأولئك المئة الذين اعتبر كلا منهم من الشخصيات الرائدة حقاً في التاريخ ، كان الرسول صلى الله عليه وسلم على رأس السلم فيقول مايكل هارت في دراسته شخصية الرسول وأثره في التاريخ : " إن اختياري محمداً ليكون الأول في قائمة أهم رجال التاريخ ربما أدهش كثيراً من القراء إلى حد قد يثير بعض التساؤلات ، ولكن في اعتقادي أن محمداًصلى الله عليه وسلم كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشكل أسمى وأبرز في كلا المستويين الديني والدنيوي .لقد أسس محمد ﷺ ونشر أحد أعظيم الأديان في العالم ، وأصبح أحد الزعماء العالميين السياسيين العظام . ففي هذه الأيام وبعد مرور ثلاثة عشر قرناً تقريباً على وفاته ، لا يزال تأثيره قوياً عارماً" [١٠٥].وحينما أجرى مايكل هارت بين محمد والمسيح وجدهما متساويين في العظمة ، غير أنه قدم محمداً لكونه هو الذي قام بإرساء قواعد الدين الإسلامي و نشره بنفسه بينما نجد أن المسيح عليه السلام قدم رسالة روحية وأفكارا أخلاقية سامية ، إلاّ إن علم اللاهوت ألمسيحي مدين للقديس بولس ، وأضاف إليها قسماً كبيراً مما يؤلف العهد الجديد في الكتاب المقدس , ويتحدث مايكل هارت في مقدمة كتابه عن مبررات تصنيف الرسول الكريم في مرتبة أعلى من يسوع المسيح ، بقوله : " ولأن في اعتقادي أن محمداً له تأثير شخصي على صياغة الدين الإسلامي أكثر مما كان ليسوع من تأثير على الدين المسيحي)) [١٠٦].

كذلك فلإسلام حرص على إقامة قواعد المساواة والإخاء في الدولة الإسلامية دونما أي خطر للعرق أو الجنس أو الشعوب والقوميات المختلفة ، ودونما تفريق بين أصحاب الديانات المتباينة أو اختلاف بين مسلم وذمي.و بدهي أن يبحث المستشرقون قضية الأخوة الإسلامية والنزعة الإنسانية في الإسلام ، وأنها كانت وراء جاذبية انتشاره ، ولقد تناول المؤرخ الإيطالي كايتاني في كتابه حوليات الإسلام كيف أن معاقل المسيحية في الشرق قد تهاوت أمام المد الإسلامي ، بسبب تلك الجاذبية وسطوع مبادئه ، فيذكر ذلك بقوله : "لما أهلت آخر الأمر أنباء الوحي الجديد فجأة من الصحراء ، لم تعد المسيحية ، التي اختلطت بالغش والزيف ، وتمزقت بسبب الانقسامات الداخلية ، وتزعزعت عقائدها الأساسية ، واستولى على رجالها اليأس و القنوط من هذه الشكوك، نقول إنه لم تعد تلك المسيحية قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذي بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة ، وقدم مزايا جليلة إلى جانب مبادئه الواضحة التي لا تقبل الجدل ، وحينئذ ترك الشرق المسيح ، وارتمى في أحضان العرب . ولا عجب فقد منح الإسلام العبد رجاء ، والإنسانية إخاءً ، ووهب الناس إدراكاً للحقائق الأساسية التي تقوم عليها الطبيعة البشرية" [١٠٧].كما أن عظمة الرسول البارزة للعيان ، تكمن في انه كان حامل رسالة سماوية توحيدية ، تهدف إلى إصلاح حياة البشرية عامة، و نقلها من البربرية إلى الوثنية إلى الحضارة التوحيدية اليقينية .. فيذكر وول ديورانت صاحب موسوعة "قصة الحضارة" ذلك بقوله :" كان محمد –صلى الله عليه وسلم– نبياً كبيرا، و توحيديا كاملا و لم يكن له نظير جاء لإصلاح البشر") [١٠٨] .

---

(١٠٥) نفس المرجع , ص٢٩.
(١٠٦) نفس المرجع , ص١٧.
(١٠٧) كايتاني : حوليات الإسلام نقلا عن كتاب الإسلام و الحياة ، ص ٦٧. أيضا جواهر لال نهرو : نقلا عن كتاب النظام السياسي في الإسلام ، ص ٢٢٠
(١٠٨) نفس المرجع , ص ٣.

والأمر المؤكد أن مفهوم الآخر فى غرب أوربا قد ورث الصورة التى تشكلت عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى القسطنطينية وغلب عليها التعصب أكثر من الموضوعية , وغالبيتها مستقى من مقاربات بيزنطية قديمة وتصورات خيالية تعود إلى الرؤى الأخرويه المستمدة من العهد القديم. وكان لمسيحى بلاد الشام دور فى الرؤية التى صورات الاسلام على أنه بدعة مسيحية وإنتقلت رؤيتهم إلى البيزنطيين ومنهم صدرت ملامحها إلى غرب أوربا فيما بعد(١٠٩).وكذلك فى نفس الوقت فالفحص الأولى للمصادر غير العربية يثبت أنها كتبت جدلية , وليست موضوعية تذكر من تشاء وتستبعد من تشاء , حتى وإن وجدت هذه النصوص فهى ليست بريئة تماما أو أشد تجردا من النصوص الإسلامية لانها نابعة من شهادات من هم فى موقع المنخرط فى الصراعات الدينية والعسكرية والسياسية مع الحضارة الإسلامية (١١٠).

ويفسر بعض الباحثين مرد تلك الصورة السلبية عن الاسلام.فتذكر الباحثة اليزابيت ماتسوشيتا أن الصورة الذهنية للمسلمين فى الادب المسيحى ارتبطت بالمعتقدات الغربية نفسها خاصة فى أواخر العصور الوسطى وعصر النهضة حيث شكلت صورة سلبية للمسلمين بسبب الصراع السياسى وهى فى معظمها صورة مغلوطة عبرت عن الفكر المسيحى فى العصور الوسطى(١١١).أما صورة الرسول محمد نفسها تحولت إلى الرمزية تأثرا بالكلمة والنور فى تصوير صورة الرسول لدى كتاب تلك الفترة التاريخية (١١٢). فعلى سبيل المثال أخذت العلاقات الاسلامية البيزنطية منحى صراع وقت الحرب ولكن وقت الحرب فلم يكن الصراع عقائدى اجتماعى خاصة وأن وقت السلم كانت هناك جسور حضارية بين البيزنطيين والمسلمين(١١٣).كذلك فإن صراعات الجيوش فى معظمها اتخذت شكل صراعات دينية ارتبطت أيضا بالخلافات العرقية والتى مثلت

(١٠٩) حجازى عبد المنعم سليمان : صورة الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم فى ضوء كتابات مؤرخى غرب أوربا على عصر الحروب الصليبية ١٠٩٥-١٢٩١م , مجلة بحوث كلية الآداب , جامعة المنوفية , دون تاريخ , ص١٤٩١.

(١١٠) أمنه الجبلاوى : الإسلام المبكر , الاستشراق الانجلوسكسونى الجديد, باتريسيا كرون ومايكل كوك نموذجا , تقديم فوزى البدوى , دار المعرفة , تونس , ص١٥٧.

(١١١) راجع :

Elizabeth Matsushita ,fiction,Ideology,and Identity,Medieval Christian depictions of the Muslim east,U.C davis,2011,p.128-130.

(١١٢) أنظر :

Christiane Gruber, Between Logos "Kalima" and light "Nur", representations of the prophet Muhammad in Islamic painting,Indiana University ,Blomington,p.252.

(١١٣) راجع :

Tarek M. Muhammad,La Conversion del islam al christianismo vista por el autor de digenes Akrites,taif University ,collectanea christiana orientalia,2014,p.122.

والحقيقة أن طبيعة العلاقة بين الدولة العربية (فى عصرى الامويين والعباسيين) والبيزنطيين "الروم " كانت فى المجمل علاقة حدود ليس أكثر ولا أقل , وإرتبطت بتلك السياسة التى رسمها الخلفاء الراشدون فى عصر الدولة العباسية بمراحلها المختلفة بما عرف بتلك الحملات العسكرية التى إرتبطت باسم المشاتى والمصائف فى تحديد الاطار لحدود كلا الدولتين بينما كانت السمة الغالبة للعلاقات بين الدولتين البيزنطية والاسلامية من جانب والممالك الغربية خاصة خلال الحروب الصليبية علاقة وجود لا حدود **."الباحث"**

الديانات السماوية الثلاث الوحدانية اليهودية والمسيحية والاسلام نموذجا للعنف عن الديانات ذات التعدد الالهة[١١٤].واعتمد النقد فى معظمه على النقد لشخصى يسوع ومحمد , وقد عبر المؤرخ إدوارد جيبون فى كتابه اضمحلال الامبراطورية الرومانية بقوله : " حينما هزمت الامبراطورية على أيدى الفرس وإنشغلت الكنيسة بالخلافات بين النساطرة والمونوفيزيت , ظهر محمد وفى يده السيف وفى الاخرى القرآن فبسط نفوذه على أطلال المسيحية وروما" , ربما هذه الصورة التى رسمها جيبون كانت سببا فى رسم صورة لمحمد كمحارب متعطش للدماء[١١٥].وهذا الأمر بخلاف الصورة التى وردت فى المصادر الاسلامية , التى أسهبت وفصلت فى جمال شخصيته وأعماله وخطبه.وهذه الصورة التى تناقلها المسلمون جيلا بعد جيل عن محمد[١١٦].وبالرغم من ذلك فلم يرى الاوربيين أن النبى محمد غريبا عن الثقافة الاوربية خاصة وأن الصدام فى العصور الوسطى – وفى التاريخ الحديث والمعاصر , اتخذ طابعا ثقافيا سلبيا كان النبى محمد عنصرا أساسيا فى الثقافة الاوربية [١١٧].ويمكن تفسير تلك النظرة العنصرية بأنه فى الوقت الذى اعتبرت اليهودية والمسيحية نفسها جزء من الديانات التى ميزت الامبراطورية الرومانية , كان مفهوم الاله اليونانى الوثنى هو العدو التقليدى للمسيحية خاصة بالنسبة للكنيسة التى اعتبرت نفسها تتحدث نيابة عن الاله [١١٨].لذلك كان عدم الفهم سببا فى وجود تلك الصورة العنصرية.خاصة أن كلمة رب فى القرآن الكريم ليس لها مقابل فى اللغة الانجليزية والتى تعنى المؤسس والمسبب لكل من الحياة والموت , والمعنى لكلمة الدين فى الاسلام معنى عام وخاص يعنى بكل من العبادة والممارسة السياسية وفى كل مناحى الحياة[١١٩]. فى الوقت الذى كانت رسالة محمد موجهه

---

(١١٤) Hans Kung,Religion and holy wars,university of Tubingen,2005,p.253.

(١١٥) راجع :

David d. grafton,Conquest and violence :the Christian Critique of Muhammad,Vol.35,Philadelphia,2014,Art.3,p.1-3.

(١١٦) Ibid,p.4.

(١١٧) راجع :

Elmira akhmetova ,Faces of Muhammad:western perceptions of the prophet of islam from the middle Ages,International Islamic ,University of Malaysia,2020,p.22-24.

(١١٨) أنظر :

Wayne J. hankey ,Judism,Islam and Christianity in medieval Europe ,difference and Unity : relegions of the Book and their assimiliation of Helenistic Philosophical Theology,atlantic Thelogical Conference,2004,p.77-79.

(١١٩) Abdurrahman al – Sheha,Muhammad The messenger of God ,second Edition,Riyadah,N.D,p.4,7.

إلى كل من اليهود والمسيحيين نجد أن نظرتهم له انحصرت فى كونه نبى حقيقى أو أنه مجرد ناقل لما ورد فى اليهودية والمسيحية من رسائل سنته عن الانبياء ابراهيم وموسى وعيسى(١٢٠).

وإذا ما أخذنا بعض الامثلة على تلك الصورة الذهنية عن الرسول صلى الله عليه وسلم والاسلام خلال العصور الوسطى من خلال نماذج من المؤرخين نجد من المؤرخيين المسيحيين يوحنا المشقى الذى يقف المؤرخ يوحنا الدمشقى فى مقدمة المسيحيين الشاميين غير المعترفين بالاسلام , وقد سعى إلى تفنيد الاسلام ومحاربته فى عدة كتب حملت العناوين التالية : الهرطقات , وعن هرطقة الاسماعيليين , كذلك كان لكتابات نيقيتاس خونياتس البيزنطى فى القرن التاسع الميلادى دور فى التأثير على على صورة الرسول السلبية خلال العصور الوسطى فى مؤلفه "تفنيد الكتاب المزيف الذى كتبه محمد" , ثم تبعه المؤرخ البيزنطى بارثلميو الرهاوى الذى وصف الايلام بالهرطقة ونسب كل ما تعلمه الرسول إلى تعليم الراهب المنشق الراهب سرجيوس أو بحيرى. لذلك غلب على الروايات الاوربية عن الرسول الكريم الطابع الاسطورى الذى اعتمد على الرواية الشفهية أو التراث الكنسى خاصة بعد قدوم الحملات الصليبية إلى الشرق الاسلامى(١٢١).وهو ما سنعرض له تباعا.

فإذا ما نظرنا لكتابات المؤرخين السريان كنموذج أول لهؤلاء المؤرخين نلاحظ أن جل تلك الروايات تركز بشرائط فلسفة التاريخ.ويعلل البطريرك افرام برصوم الذى سجل لنا مؤلفه القيم "اللؤلؤ المنثور"– وليس من الانصاف أن نغلو نحن بمطالبة كتابهم بشرائط فلسفة التاريخ البحتة , وقد ولدت بعدهم بدهر طويل , أما التمحيص فلم يقصروا فيه , وأما التعليل فلم تخل تواريخهم من طرف منه وإن كان ضئيلا , وأما البحث فى تطور الحضارة فهو من أعمال المعاصرين لنا وهم وحدهم مطالبون به.لأن الحضضارة كانت عصرئذ فى عنفوان أمرها ثم توسطت عمرها. والتواريخ السريانية على الجملة رصينة أمينة موثوق بها تستحق غاية الاعتبار , ومواضع النقد فيها يسيرة. (١٢٢) وقد اعتمد ابن العبرى على مار ميخائيل الكبير(١٢٣).أما عن مصادر تاريخ مار ميخائيل الكبير على مصادر عدة مثل كتابات يوحنا رونس الانطاكى أسقف مايوما ٥١٥م , كتابات فليروفورياس وهو مجموعة من أخبار وحوادث عدة , أيضا رسالة مار شمعون الارشمى ٥٤٠م , كذلك اقتباسات من تاريخ القس قورا البطنانى ٥٨٢ م , أيضا تاريخ مار ديونيسيوس التلمحرى ٨٥٤م ,وكتابات مار يعقوب الرهاوى ٧٠٨م , ويذكر أبرام مصادر أخرى تواريخ يوليوس الافريقى , أندرو نيقس , أوسابيوس القيصرى , أنيانوس الراهب الاسكندرى , سقراط , سوزيمن , زكريا أسقف مدلى , ويوحنا الاثاربى , أغناطيوس الملطى , ابن الصليبى وغيرهم(١٢٤).

---

(١٢٠) Gordon Nickel,we will make a peace with you,British Columbia,2006,p.172.

(١٢١) حجازى عبد المنعم سليمان : صورة الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم فى ضوء كتابات مؤرخى غرب أوربا على عصر الحروب الصليبية ١٠٩٥-١٢٩١م , حاشية ٢ , ص١٤٩١-١٤٩٢.

(١٢٢) مار ميخائيل الكبير (بطريرك أنطاكية ١١١٩م) : التاريخ الكبير , ترجمة مار غريغوريوس صليبا شمعون , إعداد وتقديم مار غريغوريوس يوحنا إبراهيم , دار ماردين , حلب , ١٩٩٦, ص٨.

(١٢٣) مار ميخائيل الكبير (بطريرك أنطاكية ١١١٩م) : التاريخ الكبير , ص٩.

(١٢٤) مار ميخائيل الكبير (بطريرك أنطاكية ١١١٩م) : التاريخ الكبير , ص٢٦.

أما عن كيفية ورود الصورة الذهنية للرسول محمد صلى الله عليه وسلم فى الكتابات التاريخية للمؤرخين السريان الآخرين , نجد فى تاريخ سعرت لمؤلف نسطورى مجهول عاش فى القرن العاشر وحتى مطلع القرن الحادى عشر الميلاديين/ الربع الهجرى , فيبدأ المؤلف تناوله للسيرة النبوية بعنوان " ظهور الاسه ثبته الله ونصره وهى صيغة تبجيلية تظهر ترحيب المؤلف ودعاء بالنصر والتمكين للإسلام(١٢٥).ففى النص لتاريخ سعرت " ... فى أيام أيشو عياب الجدالى كان ظهور شريعة الاسلام فى سنة خمس وثلاثين وتسع مائة للإسكندر (٦٢٣م / ٢ هـ) , وسنة إحدى وثلاثين لملك أبرويز بن هرمز (كسرى الثانى) , وسنة اثنتى عشرة لهرقليس (هرقل) ملك الروم ظهر بأرض تهامة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم عليه السلام , ودعا العرب إلى عبادة الله تعالى , وأطاعه أهل اليمن وقات من كان بمكة وجعل دياره يثرب وهى مدينة قنطورا سرية إبراهيم وسماها المدينة..." (١٢٦). ونلاحظ أن المؤرخ المجهول إعتمد على أهم مؤرخى السيرة من المسلمين وفى مقدمتهم ابن اسحق والواقدى وابن سعد فى وصف نيب الرسول , والإشارة إلى خبر هجرته إلى المدينة ثم قتاله مع قريش وكلها عناوين رئيسية فى كتب السيرة المشهورة لكن المؤلف لم يكن دقيقا فى تحديد الزمن التقريبى لبداية العهد المدنى من دعوته حينما حددها بسنة ٩٣٥ يونانى وهو ما يوافق ٢ هـ / ٦٣٢م , زيتعارض مع المصادر الاسلامية حيث وصل ارسول إلى المدينة يوم الاثنين ١٢ ربيع الاول من السنة ١٣ للبعثة "١ هـ"(١٢٧).كذلك ينسب المؤرخ المجهول المدينة إلى قطورة جارية إبراهيم اعتمادا على الكتاب المقدس التى ولدت له ستة أبناء أحدهم يدعى مديان وأوردها الطبرى باسم قنطورا بنت يقطان(١٢٨).وفى ثنايا الكتاب ثمة ظهور الرسول إلى هرقل إمبراطور الروم الذى " لم يحفل به وإعتمد على قول المنجمين الذين كانوا معه " (١٢٩) , ونلاحظ أن هذا الخبر يتفق مع بعض روايات لمؤرخو السيرة النبوية حيث يذكر الواقدى ‘رسال هرقل لرجل من قبيلة غسان ليبحث له خبر النبى , وما ذكره ابن سعد حول موقف هرقل بعد تلقيه رسالة من النبى ودعوة قومهه للإيمان بدعوته حيث إمتنعوا (١٣٠). وأورد البيهقى إستدعاء قريش مجموعة من تجار قريش مجموعة من تجار قريش برئاسة أبى سفيان بن حرب حيث سألهم عن حقيقة الرسول وتفاصي دعوته

(١٢٥) عوض بن عبد الله بن سعد بن ناحى : السيرة النبوية فى تاريخ سعرت النسطورى , دراسة إستقصائية للمصادر الأصلية , مجلة وقائع تاريخية , العدد ٣٤ , يناير ٢٠٢١ , الجزء الأول , ٣٠١-٣٠٢.

(١٢٦) راجع :

Scher,Addai ,Histoire Nestorienne Inedite : (chronique de seert,libarie de paris),Brepols,Paris,1950,p.600. see Hoyland. G,Robert,Theophilus of Edessa Chronicle and circulation of historical knowledge in late antiquity and early Islam ,Liverpool university .press,2011,p.89-90.

(١٢٧) للمزيد من التفاصيل راجع : الواقدى , محمد بن عمر بن واقد : المغازى , تحقيق مارسدن جونس , ط ٣, بيروت , دار الاعلمى , ١٩٨٩ , ج١ , ص٢. وراجع : ابن هشام , عبد الملك بن أيوب الحميرى : السيرة النبوية , تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الابيارى وعبد الحفيظ الشلبى , ط٢ , مصر , مطبعة الحلبى , ١٩٥٥ , ج١ , ص ٥٩٠. أيضا ابن سعد : أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع : الطبقات الكبرى , ط٢ , دار صادر , بيروت , ١٩٦٩, ج١ , ص٢٣٣.

(١٢٨) سفر التكوين : الاصحاح ٢٥. وكذلك الطبرى(محمد بن جرير): تاريخ الرسل والملوك المعروف بتاريخ الطبرى , دار التراث , بيروت , ١٩٦٧, ج١ , ص٣١١.

(١٢٩) Scher,Histoire,p.600.

(١٣٠) أنظر الواقدى (محمد بن عمر بن واقد ت ٢٠٧ هـ): المغازى , تحقيق مارسدن جونس , دار الاعلمى بيروت ١٩٨٩ , ج٣, ص١٠١٨-١٠١٩. وراجع ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع الزهرى :الطبقات الكبرى , تحقيق على محمد عمر , مكتبة الخانجى , القاهرة , ٢٠٠١ , ج١ , ص٢٥٨.

(١٣١).ويستمر المؤرخ المجهول فى تناول سيرة الرسول فيذكر "فى السنة الثامنة عشرة لهرقليس ملك الروم , وهى السنة التى ملك فيها أردشير– الثالث– بن شيرويه بن كسرى (٦٢٨م/٧ هـ) , سار العرب وقوى الإسلام وإمتنع هو – أى محمد – من الخروج فى الحروب وصار ينفذ أصحابه ..." (١٣٢).ورغم أحداث غزوة مؤته صمتت المصادر غير الاسلامية عنها وأسباب ذلك أولا أن مركة مؤتة نفسها لم تتجاوز دورها كحملة تأديبية محدودة التأثير السياسى والعسكرى , ثانيا الموقع الجغرافى للحملة فى منطقة حدودية "البلقاء" تقع فى أطراف بادية الشام الجنوبية وهو ما يلمح له ثيوفان المعرف حيث أكد أن من تصدى للمسلمين هو الحاكم البيزنطى العسكرى لتلك المنطقة الحدودية مع حلفائة العرب, يضاف السبب الثالث (الحرب الساسانية – البيزنطية ٦٠٢–٦٢٨م) يجعل المصادر النصرانية غير عابئة بأخبار حملة مؤته بسبب تركيزها على تدوين تفاصيل هذه الحرب العظمى(١٣٣).ومن بين أخبار السيرة يورد مؤلف تاريخ سعرت خبر إستقبال النبى وفدا مكونا من أربعين راكبا من نصارى نجران برئاسة "السيد الغسانى النصرانى . بهدايا وألطاف وبذلوا له المعاونة والمعاضدة والمقاتلة بين يديه إن أمرهم , فقبل ما حملوه وكتب لهم عهدا وسجلا "(١٣٤). ولم يذكر تاريخ سعرت قصة

---

(١٣١) البيهقى (أحمد بن الحسين بن على بن موسى) : دلائل النبوة , تحقيق د. عبد المعطى قلعجى , ط١, دار الكتب العلمية- دار التراث , بيروت , ١٩٨٨, ج٤ , ص ٣٧٨-٣٧٩.

(١٣٢) Scher,Histoire,p.601.

كذلك تنبغى الإشارة أن ثيوفان المعرف وهو أهم مؤرخ بيزنطى لم يشر إلى ثمة إتصال بين الرسول الكريم والإمبراطور هرقل فى ثنايا حديثه عن النبى ودينه الذى دعا الناس إليه , وربما يكون مرد ذلك أن تكون الدعوة الاسلامية من وجهة نظر هؤلاء لم تكن بالتهديد الى يشكل خطرا على الامبراطورية البيزنطية مقارنة بالخلاف الوجودى بين الامبراطورية البيزنطية والفارسية فى تلك الفترة هذا من جانب , وكذلك إعتبار جل هؤلاء المؤرخين أن الدعوة النبوية لم تكن الا حركة اصلاحية مسيحية الهوى فى ذلك المحيط الوثنى فى شبه الجزيرة العربية من جانب آخر.**"الباحث"**
للمزيد من التفاصيل حول المؤرخ ثيوفان أنظر :

Theophanes the confessor,the chronicle of theophanes Byzantine and Near Eastern History AD 284-813 ,trans. Cyril Mango,Oxford,p.464-465.

(١٣٣) الواقدى : المغازى , , ج٢ ,ص٧٥٥ . وراجع ابن سعد :الطبقات الكبرى , ج٤ , ص٣٤٣.أيضا ابن هشام(عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى ت ٢١٣ هـ) :السيرة النبوية , تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبيارى وعبد الحفيظ الشلبى , مطبعة مصطفى البابى , القاهرة , ١٩٥٥ , ج ٢ , ص٣٧٣. أيضا :

Scher,Histoire,p.601.

ويشير الاستاذ الدكتور محمود سعيد عمران – رحمه الله – إلى أن التعامل مع المصادر التاريخية يكون بناءا على ثلاثة جوانب وهى: الجانب الأول حيث يتعلق بالتعريف بالمؤرخ بداية من مولده ونسبه والمدينة التى ولد بها وتربيته وتعليمه والوظائف التى تقلدها ومدى صلته بالحكام , وهل كان شاهد عيان للأحداث أو شاهد بعضها,أو نقل مادته التاريخية عن شهود عيان , أو إن إطلع على بعض الوثائق وهل كان يسجل الأحداث فى مكان وقوعها أم سجلها بعد ذلك حتى تتضح لنا صورة واقعية للمؤرخ ومدى مصداقيته , والجانب الثانى يتعلق بمؤلفات المؤرخ سواء دينية أو إجتماعية أو تاريخية او غير ذلك حتى يتضح لنا مدى ثقافة المؤرخ وإتجاهاته وميوله , اما الجانب الثالث فهو الجزء الخاص بموضوع البحث وما ورد فى كتابات المؤرخ فى كتاب أو أكثر وأهم الفصول والصفحات التى تهم البحث وسيتم نقد المؤرخ بناء اً على خمس نقاط هى: أولا: الموضوعات التى تخص موضوع البحث وتوسع فى تقديمها بالنسبه للمصادر الأخرى., ثانيا: الموضوعات التى أوجزها المؤرخ ولم يقدم لنا فيها مادة تاريخية مثلما قدمت بعض المصادر الأخرى., ثالثا: الموضوع الذى انفرد بذكره عن بقية المصادر.,رابعا: النقاط التى أخطا فى ذكرها المؤرخ عند تناوله لبعض الأحداث., خامسا: الأحداث التى لم يسجلها المؤرخ فى كتاباته سواء أكان ذلك عن قصد أم عن غير قصد. محمود سعيد عمران: أبعاد فكرية جديدة لمنهج البحث التاريخى, بحث ألقى فى المؤتمر السنوى الأول للنقد الأدبى٢٦ -٢٨ نوفمبر, كلية الأداب- جامعة الإسكندرية , ٢٠٠٥, ص٢٨-٣٠.

(١٣٤) Scher,Histoire,p.605.

الجدالالدينى بين الرسول والوفد النجرانى والتى ركزت عليها المصادر الإسلامية , ولكنه حرص على أن يتحدث بإسهاب عن ترحيب النبى بالوفد النجرانى "وكيف أنه كتب لهم عهدا وسجلا" , ثم يختم المؤلف استعراضه لسيرة الرسول بالحديث عن خبر وفاته سنة ٦٢٣ م / ١١هـ , سنة ٩٩٥ للإسكندر[١٣٥].

هذا وتعد رواية المصادر السريانية من أكثر الروايات تماسكا وإنسجاما , نظرا لأن السريان دونوا الأحداث فى أوقاتها , وقد توفر لهم أكثر من مؤرخ عاصر الدولة الإسلامية , فدونوا ما وصل إليهم عبر وسائل مختلفة منها الأخبار والتقارير والرسائل الكنسية التى يرويها الأساقفة ورجال الدين أو من خلال العرب المسيحيين والسريان الذين شاركوا العرب فى مراحل حياتهم[١٣٦].ترد فى مصادر التاريخ السريانية أخبارا كثيرة عن الظواهر الطبيعية التى صاحبت ظهور الإسلام. فيروى بعضها أن نجوما ظهرت فى السماء كنذير سوء ينذر بأن كارثة عظيمة ستحل بالعالم , وأن الله عاقب النصارى بظهور الإسلام لأن النصارى لم يلتزموا بدينهم وسادت بينهم شريعة الله[١٣٧].ويذكر الجاثليق إيشويب فى رسائله عن الفتوح الإسلامية لفارس وبلاد الشام : أن العرب الهاجريين – المسلمين– لم يساعدوا أتباع الطبيعة الواحدة , بل أن الخسارة بسبب أخطائهم "[١٣٨].وورد فى تاريخ سنة ٦٧٠م عن نهاية دولة الفرس الساسانية وظهور الإسلام ما يلى : وعندئذ أخرج الله على الفرس أبناء إسماعيل كالرمال على شاطىء البحر, وكان مدبرهم محمد فلم تصدهم أسوار أو أبواب أو سلاح أو تروس. فتسلطوا على كل أرض فارس"[١٣٩].وفى السنة السادسة للطائيين – العرب– غاب نصف قرص وأظلمت الدنيا بدء من شهر تشرين الأول – أكتوبر– حتى شهر حزيران – يونيه – وإعتقد الناس أن الشمس لم تكتمل مرة أخرى. وألمت

---

(١٣٥) Ibid,p.618.

تنبغى الاشارة إلى أن هناك أنواع متعددة للتأريخ منها: تاريخ العالم: وهو مشكوك فى صحته لسعة الفوارق بين ما أرخه كل من اليهود والنصارى فاليهود أنقصوا عدد السنين التى انقضت منذ الخليقة حتى ميلاد المسيح فجعلوها ٤٢١٠ سنة بدلاً من ٥٥٠٠ سنة. , أيضا تاريخ الإسكندر: وهو التاريخ المبنى على الأشهر اليونانية ويعرف بتاريخ السلوقين ويبدأ من دخول سليوقس مدينة بابل بعد وفاة الاسكندر بأثنى عشر سنة وقد أخذ به السريان واليهود ويعرف عندهم بتاريخ العقود وبمقتضى هذا التاريخ يكون مولد الرسول عليه الصلاة والسلام سنة ٨٨٢ وفقا لتاريخ الاسكندر. , أما تاريخ يوليوس قيصر: وهو المعروف بالتقويم اليوليوسى أو اليوليانى وقد ورد فى مقاله لكارا دى فو أن العثمانيين اعتمدوا على هذا التقويم فى أول مارس سنة ١٦٧٦ وأسموه التقويم المالى العثمانى وعلى هذا يلاحظ أن رأس السنة كان يبدأ فى شهر مارس., وهناك تاريخ دقلديانوس: المعروف بتاريخ الشهدا ويبدأ بالسنة الأولى من حكمة الموافقة ٢٨٤م أو ٥٦٩ من تاريخ الإسكندر وهذا التاريخ هو الذى اعتمد عليه قبط مصر إلى يومنا هذا. , أما التقويم الجريجوريانى (الجريجورى):وهو التقويم الميلادى الغربى المعمول به حالياً وقد بدأ استعماله سنة ١٥٨٢ حين استقر رأى العلما الغربيين على أن السنة تنقص ٤/١ ١١ دقيقة عن لاسنة المعروفة فى التقويم اليونانى والتقويم المصرى وهو ٤/١ ٣٦٥ يوم وقد أدى ذلك إلى إنقاص ٣ أيام كل ٤٠٠ سنة أو اعتبار السنة كبيسة كل ٤ سنوات ماعدا السنوات المئوية. , كذلك هناك التقويم الهجرى: ويحسب من السنة التى هاجر فيها الرسول عليه الصلاة والسلم من مدينة مكة إلى المدينة "يثرب" وهى سنة ٦٢١م ويلاحظ أن هذا التقويم يسير حسب الأشهر القمرية فمدة السنة تنقص ١١ يوما تقريبا عن السنة الشمسية. لذا لا يوجد فرق ثابت بين السنة الميلادية والسنة الهجرية كما هو الحال بين الميلادية والقبطية ومن السهل تحويل ذلك عبر المواقع الاليكترونية المتخصصة .راجع : جلال زناتى : منهج البحث التاريخى , دار حورس , الاسكندرية , ٢٠١٧ , ص ٥-٦.

(١٣٦) محمد مجيد حميد بلال : ظهور الإسلام فى التاريخ السريانى , مجلة الكلية الإسلامية , الجامعة الإسلامية , دار المنظومة , المجلد ٥٧ , الجزء الثانى , ٢٠٢٠ , ص ٤٨٩-٥١٤.

(١٣٧) نفس المرجع , ص ٤٩٠-٤٩٢. وأنظر : جاسم صكبان الربيعى : التاريخ العربى والإسلامى من خلال المصادر السريانية , مجلة عالم الفكر , المجلد الخامس عشر , العدد الثالث , الكويت , أكتوبر ١٩٨٤ , ص٦٨٧-٦٩٨.

(١٣٨) بطرس حداد : التاريخ الصغير: القرن السابع الميلادى , مجمع اللغة السريانية , بغداد , ١٩٧٦ , ص ٣٨.

(١٣٩) محمد مجيد حميد بلال : ظهور الإسلام فى التاريخ السريانى , مجلة الكلية الاسلامية الجامعة , المجلد ١٤ –العدد٥٧ –ج٢ سبتمبر ,النجف- العراق , ٢٠٢٠ ,ص٤٩٣.

المصيبة بفلسطين إذ إنتشر مرض الطاعون فيها ومات بسببه أشراف القوم من النصارى العرب وفى هذا الزمن ظهر النبى محمد ".[١٤٠] ولذلك نرى أن بعض الرؤى تفسر ظهور الإسلام بإعتباره عقابا للنصارى نتيجة لخلافاتهم الدينية وعقابا للفرس والروم نظرا لحالة الحرب الدائمة بينهما التى جعلت المنطقة منطقة غير مستقرة[١٤١].كما أن إنتشار قصة الراهب بحيرا فى الأوساط المسيحية والسريانية خاصة وهى قصة تاريخية تمتلىء بأخبار الرؤى الالهية. مثل علاقة الراهب المذكور بالرسول فالراهب بحيرا يقص على الرسول رؤياه على جبل الطور بقوله " " قال سرجيس بحيرا للرسول ستكون عظيما وملكا ونبيا وراعيا ورئيسا لبنى قومك"[١٤٢].كما ورد فى تاريخ سعرد عن الإسلام : " فى سنة إحدى وثلاثين لملك أبرويز بن هرمز – (٥٧٩–٦٢٨م)– وفى السنة الثانية عشرة لهرقل ملك الروم ظهر بأرض تهامة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم عليه السلام ودعا العرب إلى عبادة الله تعالى" , ويضيف ميخا المقدسى : " وفى سنة ٩٣٢ ملك محمد الملك الأول على العرب. وإبتدع الذبح الأول وأطلعهم منه.وما كان من عاداتهم" [١٤٣].

أما فى تاريخ يعقوب الرهاوى فلم ترد سوى تلك العبارة المقتضبة التفاصيل : " بعد أن إحتل الفرس مصر وسيطروا على ليبيا وخرج محمد فى تجارة إلى فلسطين والصحراء العربية وفونيقية وصور"[١٤٤].بينما ذكر يوحنا بن فنكايا عن الاسلام : " وقد حافظ العرب على وصايا هاديهم. وقد أخذوا عنه عبادة الله الواحد والسجود له كعادة الشرائع القديمة لليهود والنصارى"[١٤٥].وورد فى تاريخ إيليا بن شينا ما يلى : " فى سنة ٩٣٣ يونانية هاجر محمد بن عبد الله نى العرب وأول ملوكهم إلى يثرب[١٤٦].بينما ذكر ميخائيل الكبير : " وفى السنة الثانية عشرة لهرقل وفى السنة ٣٣ لكسرى آنو شروان بدأت مملكة الطائيين وعندئذ خرج رجل يسمى محمد من قبيلة قريش وتوجه إلى مدينة يثرب , وقال عن نفسه أنه نبى. أما محمد بن عبد الله فقد توجه من يثرب إلى فلسطين فى تجارة وبيع وشراء.وبعدما تحدث مع اليهود هناك تعلم منهم عبادة الله.ولما وجد بنى قومه يسجدون للأصنام والاشجار وكل المخلوقات , فقد دعاهم إلى العقيدة اليهودية بعدما حسنت فى عينيه.... وبعدما خدع كثير منهم صاروا أتباعا له. وخرج للقتال فى فلسطين ولما بلغها حرر أهلها ليدينوا له بالولاء. زبعدما خضعت الأراضى الرومانية والفارسية له , أمرهم بعابدة الله الواحد خالق كل شيىء , وأن يتوقفوا عن الإيمان بالمسيحية.. وآمن بكتاب موسى والانبياء وببعض من الإنجيل وترك معظمه"[١٤٧].

---

(١٤٠) ميخا المقدسى : ظهور الإسلام فى تاريخ السعردى , مجلة بين النهرين , السنة الرابعة , العددان ١٥/١٤ , بغداد , ١٩٧٦ , ص١٨٠-٢٠٨.

(١٤١) محمد مجيد حميد بلال : ظهور الإسلام فى التاريخ السريانى ,ص٤٩٤.

(١٤٢) محمد مجيد حميد بلال : ظهور الإسلام فى التاريخ السريانى ,ص٤٩٤. وراجع ميخا المقدسى : المصدر السابق , ص١٨٠-٢٠٨.

(١٤٣) أنظر : ميخا المقدسى : المصدر السابق , ص١٨٠-٢٠٨.

(١٤٤) أنظر :يوسف حبى : تواريخ سريانية , من القرن ٧ -٩م ,المجمع العلمى العراقى,٢٠١٨, ص١١٧-١١٨.

(١٤٥) زكية محمد رشدى : ميخائيل السريانى,كلية الأداب- جامعة القاهرة , ١٩٦١ , ص٨٩.

(١٤٦) يوسف حبى : تاريخ إيليا بن شينايا , مجمع اللغة السريانية , بغداد , ٢٠١٨, ص١٢٨.

(١٤٧) يوسف متى اسحاق : دراسات فى تاريخ أبى الفرج الملطى, رسالة دكتوراه بالجامعة الامريكية ببيروت AUB, لبنان, ١٩٧٣ , ص١٥٦.

وفى حوليات الراهب القرطمينى المعروف بمنصور بن مرزوق الباسبرينى , الذى تولى رئيس دير قرطمين (دير مار كابرئيل) , يذكر عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم :" وفى سنة ٩٣٢ يونانية (٦٢١م) ظهر محمد كأول ملك للعرب , وذبح وقدم الضحية الاولى وأطعم العرب على غير عوائدهم. زمنذ ذلك الحين إبتدأ حساب السنين لديهم"[١٤٨].أى أن التصور هنا على الاسلام إنحصر فى تغييرات سياسية واجتماعية ودينية أحدثها محمد صلى الله عليه وسلم فى شبه الجزيرة العربية.

ووفقا لما تقدم يلاحظ على الروايات السريانية ما يلى :

أولا: أن المؤرخين السريان عرفوا الإسلام فى إطار التعبير " دين العرب".وهو تعبير يوحى بديانات العرب الوثنية قبل الإسلام.

ثانيا : عدم إهتمام المصادر السريانية بتفاصيل الإسلام خاصة أن مؤلفى هذه المصادر من رجال الدين النصارى لم يرغبوا فى أن يضطلع النصارى على المبادىء الإسلامية الانسانية كى لا يترك النصارى دينهم ويعتنقوا الإسلام لذلك عمل هؤلاء المؤلفون على عزل النصارى على الاسلام آملين فى إثارتهم ضد المسلمين عن طريق المبالغة فى وصف بعض سلبيات الفتوح الاسلامية.

أما عن **النموذج الثانى للمؤرخين فهو صورة الآخر فى الحروب الصليبية (١٠٩٥-١٢٩١م)** وهذه الحروب المسمه بالحروب الصليبية وفقا لدعوة البابا أوربان الثانى Urban II (١٠٨٨ – ١٠٩٩م) الذى قام بالدعوة لعقد مجمع دينى فى مدينة كليرمونت Clermont فى الفترة من الثامن عشر وحتى الثامن والعشرين من نوفمبر عام ١٠٩٥م، وفى السابع والعشرين من الشهر ذاته ألقى البابا خطبة دينية حماسية فجر فيها الحروب الصليبية على بلاد الشام. وقد نجحت الجيوش الصليبية فى التقدم عبر أوربا وآسيا الصغرى حتى وصلت إلى بلاد الشام وأسسوا حسب الترتيب التاريخى إمارة الرها ثم أنطاكية عام ١٠٩٨م، ثم مملكة بيت المقدس الصليبية عام ١٠٩٩م، وأخيراً اكتمال إمارة طرابلس عام ١١٠٩م. وتوالت انتصارات الصليبيين على المسلمين بشكل ملموس لبعض الوقت. والحقيقة أن انتصارات الصليبيين كانت لعوامل كثيرة لعل أهمها تمزق العالم العربى فى تلك المرحلة. وما أن بدأ شكل من الوحدة ولو على نطاق محدود حتى بدأت انتصارات المسلمين تتوالى على الصليبيين، وبدأ المد الصليبى ينحسر رويدا رويدا. وقد يلاحظ المؤرخ أن الهزائم التى لحقت بالصليبيين كانت أكثر بكثير من انتصاراتهم التى كانت محددة، وغير مؤثرة على مسيرة حركة الاسترداد التى قام بها المسلمون لاستعادة الأراضى المقدسة [١٤٩]. فلقد رسمت عن محمد صلى الله عليه وسلم خلال فترة الحروب الصليبية صورة ذهنية إرتبطت بما قامت به البابابوية من تلفيق الاباطيل والاكاذيب ضد المسلمين ووظفتها فى الدعاية

---

(١٤٨) بنيامين حداد: حوليات الراهب القرطمينى , تعريب ودراسة تاريخية مقارنة , دهوك- كردستان العراق, ٢٠١٢ , ص٣٩.

(١٤٩) راجع :محمود سعيد عمران : فشل الحروب الصليبية وأثره على الفكر الاوربى , بحث ألقى فى مؤتمر التبادل الثقافى والحضارى بين شعور البحر المتوسط (١١/٢٩ - ١٩٩٩/١٢/١. جامعة بيروت العربية - لبنان) , ص١-٢. وللمزيد من التفاصيل حول خطاب البابا أوربان الثانى أنظر : فينان صفوت عبد اللطيف طه : الدعاية الدينية للحروب الصليبية , خطاب البا أوربان الثانى فى كليرمونت ١٠٩٥م , دراسة توثيقية تحليلية , رسالة دكتوراه غير منشورة , قسم التاريخ , كلية التربية –جامعة الاسكندرية , ٢٠٢٣م, صص١٢-١٣٤.

المسيئة للرسول صلى الله عليه وسلم كى تثير حماسة الاوربيين لحثهم على المشاركة فى الحملات الصليبية حينما تنهار أيدولوجيتهم[١٥٠].وقد اعتمدت كتابات بعض مؤرخى الحروب الصليبية على مصادر السيرة النبوية مثل وليم الصورى ووليم الطرابلسى وبوكهارد من جبل صهيون ومتى الباريسى واعتمد البعض على المنصرين الذين تم إرسالهم إلى الشرق بل وأجاد البعض اللغة العربية [١٥١]. والامثلة على ذلك كثيرة فلقد سعى يعقوب الفترى إلى تنصير المسلمين حيث ادعى أن الرسول الكريم ليس سوى القس سوسيو المهرطق الذى أدانه البابا وتم نفيه إلى الجزيرة العربية وهناك إدعى النبوة معتمدا على العهدين القديم والجديد , كما حاول أوليفر أوف بادربورن إلى محاورة المسلمين بهدف إقناعهم بصحة العقيدة المسيحية وسعى إلى اقناع المسلمين بالتحول إلى المسيحية وركز وليم الطرابلسى على مساعدة البعثات التنصيرية لإنجاح مهمتهم إلى المسلمين , بل ورأى البعض منهم أمثال همبرت مقدم طائفة الدومنيكان ناصحا البابا جريجورى العاشر بإستراتيجية جديدة فى التعامل مع المسلمين وهى عرض العقيدة المسيحية عليهم لتأكيد خطأ العقيدة الاسلامية من وجهة نظره وذلك للتصدى للزيادة المضطردة فى أعداد المسلمين[١٥٢].ويمكن القول أن النظرة للرسول والاسلام تلخصت فى اعتبار المسلمين وثنيين وكفار وغير مؤمنين بالعقيدة المسيحية.

([١٥٠]) حجازى عبد المنعم سليمان : المرجع السابق , ص١٤٩٢-١٤٩٣. وللمزيد من التفاصيل حول طبيعة الايدولوجية الصليبية راجع : قاسم عبده قاسم : الخلفية الايدولوجية للحروب الصليبية , الطبعة الاولى , دار عين , القاهرة , ١٩٩٠ , ص٣-٥٣. وكذلك محمد مؤنس أحمد عوض : الرحالة الأوربيون فى مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩ ١١٨٧ م) ط١ ،داعين ،القاهرة ، ١٩٩٢ ، ص ١٦-١٧.

شكل المونوفيزيت : مذهب الطبيعة الواحدة لدى المسيحيين يرى أن المسيح إلة متساو مع الأب وهو رأى أثناسيوس من كهنة الإسكندرية فى بداية القرن الرابع الميلادي ، ورأى أريوس الانطاكى أن للمسيح طبيعيين إلهية وبشرية لذا أحتدم الخلاف بين الكاهنين. وهم من رأو فى الاسلام هدم للعقيدة المسحية خاصة فى كتاباتهم التاريخية عن الرسول والاسلام راجع محمد محمد الشيخ : تاريخ مصر البيزنطية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠١ ، ص٤٦ – ٤٧ . وكذلك توماش ماستاك: السلام الصليبي الجماعة المسيحية والعالم الإسلامي والنظام السياسي العربي ، ترجمة بشير السباعي ، القاهرة ، ٢٠٠٣ ، ص ٩٦ – ٩٧ . كذلك شكلت الجماعات المسلحة الدينية مثل هيئة الداوية Templar's التى شجع ملك بيت المقدس بلدوين الثاني (١١١٨ – ١١٣١م) على إنشاء تلك الهيئة التى كانت على أساس عسكري حربي وذلك فى عام ١١١٨م ومنح هذا الملك مؤسس هذه الجماعة مقرا مؤقتا يقع فى الجانب الشمالي هيكل سليمان مقابل المشاركة فى الحرب ضد المسلمين وأصبح شعارهم صليبا أحمر ولباسهم البياض , فى دعم تلك الصورة فى أثناء الوجود الصليبى فى الشرق الاسلامى.أنظر :

Galal Zanaty,Strategy of Relegional and Polotical Terrorism in Middle East during Historical Ages,Comparative Study between Templars and Assassins,"Historical Theorization" Interdisciplinary Study,Jornal of Military and Strategy Studies ,Berlin,sep.2021,p.199-226.

وراجع : محمد محمد مرسي الشيخ : عصر الحروب الصليبية فى الشرق ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠١ ، ص ٢٠٢ – ٢٠٣ . وكذلك

William of Tyre., Historia rerum in partibus Transmarinis gestarum, XII, 7, patrologia Latina 201, 526 – 27, Translated by James Brundage., The crusades: A Documentary History, (Milwaukee WI : Marquette university press, 1962), 70- 73.

([١٥١]) حجازى عبد المنعم سليمان : المرجع السابق , ص١٤٩٤.

([١٥٢]) نفس المرجع , حاشية ٢ , ص١٤٩٤. أيضا ص١٥٠٨.أما عن هؤلاء المؤرخين يرجى الرجوع إلى :

James of Vitry,Lettres ,ed. Robert Huygens,Leiden,1060,p.79-98.

Wilhelm von Tripolis,Notitia de Machometo de statu Sarracenorum,Ed, peter angels,Warzburg,1992,p.75-81.

أيضا : حول كتابات مؤرخى الحروب الصليبية أنظر سهيل زكار : الموسوعة الشاملة فى الحروب الصليبية , دار الفكر للطباعة والنشر والتزيع , ٥٠ جزء , دمشق , ٢٠٠٨م.

أما مؤرخى غرب أوربا فالبعض منهم لم يزور الشرق أمثال توما توسى وجيوبرت أوف نونجنت وروجر أوف ويندوفر وجوتييه دى شامبين وجوتفريد أوف فيتربو ومتى الباريسى وفانسان دى بوفييه وأوتو الفريزى وغيرهم وأما من زار الشرق منهم فلم تطل إقامته بما لا يحقق له الاتصال الذى يوقفه على حقيقة الاسلام , ومن هؤلاء شهود عيان الحملة الصليبية الاولى أمثال المؤرخ المجهول وفوشيه أوف شارتر وريموند دى جيل وبطرس توديبوت والمؤرخ المجهول لحملة ريتشارد قلب الاسد الذى وصف المسلمين بالكفار Infidels الذين لا اله لهم , وبوكهارد من جبل صهيون الى راق له سماح المسلمين لأهل كل ديانه فى ممارسة شعائهم ولكنه رأى : ويقولون إن محمدا هو رسول الله , وقد بعثه الله إليهم فقط , والعديد من الرحالة , بينما إنشغل من استقر منهم فى الشرق بالدفاع عن أنفسهم شأنهم شأن بقية الصليبيين الذين إنغلقوا على أنفسهم فى قلاع وحصون حالت بينهم وبين الاندماج مع جيرانهم المسلمين من المزارعين والعلماء والساسة ويمثل هؤلاء فوشيه أف شارتر ووليم الصورى الذى ضاع كتابه "تاريخ أعمال أمراء الشرق Gesta orientalium principum ووليم الطرابلسى الذى اعتمد على المصادر العربية وقدم صورة غير نمطية عن الاسلام وغيرهم حيث ربط بين الراهب بحيرى Bahira والرسول Machomentus الى تيبب صحابته فى قتل الراهب بحيرى [١٥٣].ويطيب كثيرا للمؤرخ يعقوب الفيترى أن يصف المسلمين بأعداء المسيح الوثنيين[١٥٤].حتى أن الترجمة الركيكة المتعددة الأخطاء لمعانى القرآن الكريم على يد بطرس المبجل Peter Venerable المنتمى لدير كلونى الذى توفى فى عام ١١٥٦م , لم تكن بغرض معرفة بالاسلام بل بهدف تفنيد ومهاجمه كل من الاسلام والمسلمين , بالرغم من أن بطرس حصل على ترجمة عن سيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلا أنه ركز على فساد العقيدة الاسلامية رغم اعتماد المؤرخين اللاحقين على ترجمته أمثال بوكهارد من جبل صهيون [١٥٥].كما أن متى الباريسى الذى اعتمد على السرد الانتقائى عن الاسلام بما يوافق ميوله ورفض ما دون ذلك ووصف العرب بأنهم عبد الاوثان كما رأى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد اغتصب النبوة وعقابا له أصابه الرب بمرض الصرع [١٥٦] بل أن بعض مؤرخى أوربا إتخذ من الزواج لدى المسلمين مدخلا تطرقوا من خلاله لزواج الرسول صلى الله عليه وسلم فسرت دانا مونرو عن نقل تلك الصورة للاسهام فى اتهام المسلمين بالانغماس فى الملذات والتحلل الأخلاقى ورأت البابوية المسلمين ملحدين Ampious [١٥٧] وهى الصورة السائدة التى دعمتها البابوية خلال الحروب الصليبية إلى العصور الحديثة.

أما المؤرخ توما توسى فقد نقل الصورة البيزنطية عن الاسلام بأنه نوع من الهرطقة التى تعتمد على قصص من العهدين القديم والجديد[١٥٨].أما وصف الاسلام كدين سماوى فلقد أشار روجر أوف ويندوفر إلى أن المسلمين

---

(١٥٣) حجازى عبد المنعم سليمان : المرجع السابق , ص١٤٩٥-١٤٩٦, ص١٥١٠, ١٥١٧-١٥١٨. كذلك حول تحليل أعمال وكتابات مؤرخى العصور الوسطى أنظر : محمود سعيد عمران : منهج البحث التاريخى ومصادر العصور الوسطى , دار المعرفة الجامعية , الاسكندرية , ٢٠١٠.

(١٥٤) James of Vitry,op.cit,p.97-98.

(١٥٥) حجازى عبد المنعم سليمان : المرجع السابق , ص١٤٩٧.

(١٥٦) نفس المرجع , ص١٤٩٩ , ص١٥٠٣-١٥٠٤ , ١٥٠٩.

(١٥٧) نفس المرجع , ص١٥٠٤, ١٥١٨.

(١٥٨) Thomas Tusci,Gesta Imperatorum,vol.XXIII,p.429etc.

يقرون بوحدانية الله وأنهم لا يعبدون الرسول محمد وأنهم يعدونه رجل صالح ونقل تلك الصورة غن اقرار المسلمين بوحدانية الله وليم أف ماسبورى الذى توفى عام ١١٤٣م وكذلك أوتو الفريزى الذى وضع مؤلفه بين عامى ١١٤٣و١١٤٦م ودعم عبادة المسلمين لله , ولكن على النقيض من ذلك أشار وليم الصورى أن محمد رسول المسلمين وأنه سيكون سبب هلاكهم ولم يميز المؤرخون الصليبيون بين الشيعة والسنه كمذاهب اسلامية بل أن مؤرخى أوربا اتهموا الرسول صلى الله عليه وسلم بالسطو على النبوة من على بن أبى طالب. (١٥٩) كما أن المؤرخ جوانفيل الذى صاحب الحملة الصليبية السابعة على مصر على هذا المعنى بقوله : " ... وكان على هذا قد رفع محمدا إلى مكانة التعظيم التى تبوأها , فلما ثبتت أركان سيادة محمد على الناس احتقر ابن عمه , وباعد فيما بينه وبينه , فلما رأى على ذلك جمع حوله أكبر عدد مستطاع جمعه من الناس ولقنهم تعاليم أخرى مناقضة لتعاليم محمد , حتى أصبح المؤمنون بعلى الآن يرمون أتباع شريعة محمد بالكفر , وكذلك الحال إزاء المومنين بمحمد حيث يكفرون أتباع على ..." (١٦٠).

ومن تأثيرات تلك الصورة السلبية للاسلام فى العصور الوسطى أنها وصلت إلى جهات معزولة فى أقصى الطرف الشمالى الغربى الاوربى ففى السويد East Norse – old Swedish , تلخصت الصورة الذهنية للرسول فى كونه نبى مستعار Peseudo prophet ولكن فى نفس الوقت أعتبر أحد الرموز التى عبدت من قبل الموحدين السارسين , خاصة وأن الأشارة للمسلمين دائما ما كانت تستبدل بلفظ الساراسين أو الهاجريين Hagarenus كما هو الحال فى الكتاب المقدس ووجدت تلك الالفاظ فى الأساطير السويدية Swedish Legandary التى تعود إلى ١٤٢٠م , ولم تذكر الجديد حول شخص الرسول.لذلك انحصرت تسميات المسلمين بين أرابر Araber و بدوينيس Bedoines للإشارة إلى المسلمين البعيدين عن التحضر , ومنذ عام ١٤٨٠م فى حولية شارلمان نجد تسمية بلامن Blaman (Black man) ومنذ القرن السادس عشر نجد محميت , محمديين Mohamedan , mahomet للإشارة إلى المسلمين والاتراك Tyrke على وجه الخصوص(١٦١)

---

(١٥٩)حجازى عبد المنعم سليمان : المرجع السابق , ص١٥١٦-١٥١٧.

(١٦٠) جان دى جوانفيل : القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام , ترجمة دكتور حسن حبشى , دار المعارف , القاهرة , ١٩٦٨, ص٢٠٦-٢٠٧.

(١٦١) Jonathan adams,The life of Prophet Muhammad in East Norse,New york,2014,203- 205.

ومن الجدير بالذكر إلى أن نفوذ البابوية لم يكن قاصراً نشر الصورة السلبية على الامارات الصليبية فى الشرق الاسلامى فقط بل كان له أيضا تأثير كبير على اللاسلام والمسلمين وعلى طبيعة العلاقة بين المسيحيين والصليبيين فى شبه الجزيرة الايبيرية ففى مملكة قشتالة وليون وباقي الممالك المسيحية في شبه جزيرة أيبريا كان نفوذ البابوية يتناول المسيحيين المعاهدين تحت حكم المسلمين (المستعربين Los Mozarabes، وكان للبابا رأي في تعيين أساقفة المناطق الإسلامية ، ومع أن مصير الكنيسة الأسبانية كانت تجتمع في يد رئيسها الأعلى فإن معظم المؤتمرات الكنسية كانت تعقد على يد سفراء البابا ، وذلك حرصاً من روما على ألا يستخدم رئيس الكنيسة الأسبانية إستقلاله فينشئ كنيسة مستقلة.راجع: يوسف أشباخ: تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين , ترجمة محمد عبد الله عنان , مكتبة الخانجى , القاهرة , ١٩٩٦ , ج ١، ص ١٣٢.وعلى الرغم من ذلك لم يقبل المسيحيين الإسبان التعايش جنبا إلى جنب من مسلمى الأندلس بسبب تلك النظرة التى دعمتها الكنيسة , خاصة وأنهم يعتبرون أن مسلمى الأندلس شعبا أجنبيا يعتنق دينا يخالف عقيدته الكاثوليكية التى يؤمنون بها ويتعصبون لها , وبناءا على ذلك إختلفت أهدافهم فى قتال المسلمين , ولعل أهم أهدافها أنه منذ أن قامت دول الشمال المسيحى فى أسبانيا , وجد معها منذ قيامها الحافز على قتال المسلمين , فقد قامت تلك الحرب الوجودية أولا للدفاع عما تبقى لها من أرض شبه الجزيرة , وتطور الدفاع إلى الهجوم المتقد فى عصر الخلافة الإسلامية , وصار هجوما طاغيا بعد سقوط الخلافة الأموية عام ١٠٣١م/٤٢٢ه , وكان هدف الهجوم هو الأرض , وإستعادة أرض شبه الجزيرة

ويوضح الدكتور حجازى عبد المنعم سليمان ذلك بالقول أن بالرغم من توفر المصادر والكتابات الاسلامية فى شبه الجزيرة الايبيرية فى أسبانيا والبرتغال وسهولة الحصول عليها لاتصالهم بالعرب فى الاندلس ووجود المترجمين اليهود إلا أن القساوسة والرهبان آثروا الاعتماد على المصادر الاوربية وعلى ترجمة بطرس المبجل وغيره من مؤرخى الحروب الصليبية وهى الكتابات التى غلب عليها السطحية والرؤى الشعبية على حساب المصداقية.وقد ترتب على ذلك الجهل تلك السمة التى تكاد ترتبط بغالبية المؤرخين الصليبيين فى وصفهم للمسلمين تارة بالهراطقة والكفار خاصة خلال الحملة الصليبية الاولى , وبالوثنيين تارة ثانية , وبالجمع بين تلك الاوصاف المتناقضة وهى أوصاف ارتبطت بالإدعاءات الوربية المسيئة للاسلام والمسلمين بإثارة مشاعرالحماسة

الأيبيرية التى سيطر عليها المسلمون منذ فتوحات طارق بن زياد وموسى بن نصير , وإتبع مسيحيين الشمال أساليب مختلفة لتحقيق هذا الغرض, ومنها إتبعوا إسلوب الحرب السافرة وجها لوجه , وتحريض المولدين (وهم نتاج الزواج بين العرب والبربر والاسبان) , وإثارة الفتنة بين المسيحيين والمسلمين , وإستعداء الفرنجة على المسلمين , وحرب العصابات وحرب الإستنزاف والإنهاك , مما كلف خزانة المسلمين الكثير من الأموال.وهذه الحروب التى دارت رحاها بين المسيحيين الإسبان وبين المسلمين فى الأندلس كانت حربا ذات طبيعة دينية عرفت بحروب الإسترداد , وهذا الصراع كان فى غالبه صراعا عسكريا بين الشمال المسيحى وبين الجنوب المسلم وقد تميز هذا الصراع ,بعدد من الأمور وهى: أولا : أن الصدام العسكرى إختلف شدة وضعفا حسب الأحوال الداخلية لكل من الجانبين , فعندما تكون هناك مشاكل داخلية فى الشمال , كان الجنوب ينتهز الفرصة ويشدد هجومه والعكس صحيح.وبذلك تبادل الفريقان النصر والهزيمة , ولم ينل أحدهما من الآخر بما يقضى عليه ويزيله من الوجود , ثانيا : أن معظم الحملات التى قام بها مسلمو الأندلس كانت تتجه إلى المنطقة الوسطى من الشمال الإسبانى , وهى التى تسمى آلبه والقلاع "قشتالة " , وتحالفوا فى أحيان كثيرة مع ملوك نبرة "نافار" , ووجهوا حملات للمالك المسيحية لعقابهم على الإغارة على الأراضى الإسلامية , ووجهوا حملات لمهاجمة جليقية وأشتوريش , ثالثا : أن حكام المسلمين خاصة أمراء بنى أمية إدراكا منهم لخطورة الوضع فى مناطق الثغور أو الحدود مع الشمال الإسبانى المسيحى.قاموا بتنظيم إرسال الحملات التى كانت تسمى الصوائف والشواتى , وحفلت معظم عهود أفراد بنى أمية بارسال هذه الغزوات إلى مسيحى الشمال إما دفاعا أو هجوما أو ردا على هجوم قد تم أو مرتقبا حدوثه , رابعا : أن الأوضاع الداخلية كانت تفرض على طرفى الصراع أحيانا عقد معاهدات الصلح وإقرار السلام , حدث هذا فى عهد الأمير عبد الرحمن الداخل , والأمير عبد الرحمن الأوسط , والأمير عبد الله الأوسط , لكن لاتلبث دوافع الصراع أن تتحرك عن أحد الطرفين , فينقض العهد فتنشب الحرب من جديد , وغالبا كان المسيحيون الأسبان هم الناقضون للعهد , خامسا : أن من محصلة الصراع كانت لمصلحة مسيحى الشمال الإسبانى حيث إتسعت دولتهم نتيجة لتدهور أوضاع المسلمين فى الأندلس . للمزيد من التفاصيل أنظر : جلال زناتى : مملكة قشتالة وليون فى عهد فرناندو الأول (١٠٣٥-١٠٦٥م /٤٢٦-٤٥٧) , رسالة دكتوراه غير منشورة , كلية الآداب , جامعة الاسكندرية , ٢٠١٣, ص٦٣-٦٤. أما عن حركة الاسترداد La Reconquista في مفهومها الخاص الحرب التي بدأت منذ بداية الفتح الإسلامي عام ٧١١م/ ٩٢هـ، والذي يعتبره الأسبان غزواً Invasion حتى سقوط غرناطة عام ١٤٩٢ / ٨٩٧هـ ، والتي استمرت قرابة ثمانية قرون إستعاد فيها الإسبان الأراضي التي فقدوها. ومما يؤكد هذا المعنى حينما دار الصراع بين المستعين بن هود (٤٣٠ – ٤٤٠ هـ /١٠٣٩ – ١٠٤٩م) حاكم سرقسطة والمأمون بن ذي النون (٤٣٥- ٤٦٨هـ /١٠٤٣ - ١٠٧٥م) حاكم طليطلة في عام ١٠٤٣م/ ٤٣٤هـ وتدخل فرناندو الأول Fernando I (١٠٣٥ - ١٠٦٥م / ٤٢٦ - ٤٥٧هـ) في هذا الصراع بعد أن لجأ إليه أهل طليطلة لحل هذا النزاع , ولكنه قال لهم "إننا نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديماً في أول أمركم ، فقد سكنتموها ما قضى لكم ، وقد نصرنا الله عليكم برداءتكم ، فأرحلوا إلى عدوتكم (يقصد بلاد المغرب)، وإتركوا لنا بلادنا فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم، ولن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا بينكم" ابن عذاري: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٨٢. رجب محمد عبد الحليم: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، د.ت، ص ٣٣٩. أما في مفهومها العام ، فالأسبان يعتبرون تطوراتها ، الحلقات الرئيسية لسلسلة تاريخهم القومي الذي يبدأ ببضعة قرون قبل ميلاد السيد المسيح –عليه السلام- حينما هبط الفينيقيون شبه الجزيرة الأيبرية , ويتصل أثناء العصور الإغريقية والرومانية والقوطية المسيحية , ويستمر خلال الفترة الإسلامية متمثلاً في هذه الدويلات التي نشأت في الشمال وأخذت تتوسع حتى قضت على دولة الإسلام في البلاد وأعادتها إلى المسيحية كما كانت.

حول حركة الاسترداد فى إسبانيا انظر: Luis Suarez Fernandez: Historia de Espaňa Antigua Y Media, Madrid, 1976, p. 446. CF,Lucas Villegas: Norman and Anglo Norman Participation in The Iberian Reconquista (1018 – 1248), Thesis for ph. D, Nottingham, 2007, p. 3 etec.

لدى الاوربيين ضد الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين لحث العوام والأمراء والملوك فى أوربا على المشاركة فى الحملات الصليبية [١٦٢].خاصة أن من المغالطات الكثيرة التى تحويها الروايات تأكيد إنتشار الاسلام بحد السيف وهو الامر الذى لقى صدى لدى المستشرقين[١٦٣].

كذلك يفسر أرمسترونج سبب ذلك الاتجاه المعادى للاسلام بأن الأوربيين كانوا بحاجه إلى تفسير الدعوة الدينية للرسول وسر نجاحها لذلك لم يجدوا سوى إنكار الوحى وبالتالى نفى وجود الاسلام , وفى هذه الحالة لن يكون الاسلام سوى مروق دينى أو هرطقة خرجت عن المسيحية بشكل متقل وهى الافكار التى تعود بجذورها إلى الحقبة البيزنطية [١٦٤].

المبحث الثالث : أثر الصورة الذهنية للرسول والإسلام فى مخيلة العوام خلال عصر الحروب الصليبية

أثرت الصورة الذهنية التى دعمتها البابوية ووثقها الكتابات التاريخية للمؤرخين فى العصور الوسطى على عقول رجال السياسة والعلوم فى العصور الوسطى , والحقيقة الواضحة أمامنا الآن أن الصليبيين قد عاشوا منذ أن وطأت أقدامهم بلاد الشام فى معضلة بين الاعتماد على أنفسهم، والاعتماد على أوربا التى كانت مشغولة بمشاكلها الداخلية، ولكن الهزائم كانت تتلاحق بصورة لا يمكن مواجهتها. وبدأت علامات الفشل تظهر بعد وقت قصير من إنتصاراهم فى الحملة الصليبية الأولى. ولكن نتيجه لهذه العوامل مجتمعة بدأ الفكر الأوربى يتغير، كما تغيرت خططهم من أجل التمسك بالأرض التى استولوا عليها وبدأت تظهر لدى الصليبيين والأوربيين صور ذهنية وأفكار غريبة عن الاسلام كالأساطير والتنبؤات , وبين هذه الأساطير والأفكار أسطورة الكاهن يوحنا Prester John التى عاصرت عماد الدين زنكى أتابك الوصل عام ١٢٢٧م، ثم الموصل وحلب حتى وفاته عام ١١٤٦م[١٦٥].فمع تولى عماد الدين زنكى بدأت صحوة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين، فقد نجح المسلمون فى عام ١١٤٤م من استعادة مدينة الرها أول إمارة صليبية تؤسس فى الشرق، وأول إمارة صليبية تسقط فى يد المسلمين، فكان سقوطها إيذاناً بتصدع البناء الصليبى فى الشرق [١٦٦].وحينما وصلت أخبار سقوط الرها إلى مسامع الصليبيين فعلوا ما بوسعهم دون أن يحققوا نتائج تذكر، لذلك سارعت ملكة مملكة بيت المقدس إلى الاستنجاد بالبابوية للدعوة إلى حملة صليبية جديدة، وأتفق أن يكون هيو Hugh أسقف مدينة جبلة الواقعة جنوب مدينة اللاذقية التابعة لبطريكية أنطاكية رسولاً إلى البابا يوجين الثالث Eugenius III (١١٤٥ – ١١٥٣م). وصل هيو إلى المقر الباباوى فى روما وذلك فى خريف عام ١١٤٥م، ولكن البابا كان فى مدينة فيتربو Viterbo.فى نفس الوقت تصادف وجود المؤرخ الألمانى أوتو أف فرايزنج Otto Freisingen فى روما، فاصطحب هيو إلى البابا الذى افزعه خبر سقوط مدينة الرها , وأبلغ هيو البابا بقصة الكاهن يوحنا [١٦٧] ، ولعل

---

(١٦٢) حجازى عبد المنعم سليمان : المرجع السابق , ص١٥٠٠ , ١٥٠١-١٥٠٢.
(١٦٣) نفس المرجع , ص ١٥٢٤.
(١٦٤) نفس المرجع , ص١٥١٨.
(١٦٥) محمود سعيد عمران :فشل الحروب الصليبية وأثره على الفكر الاوربى, ص ٣.
(١٦٦) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية - مكتبة الانجلو , القاهرة ,١٩٦٣ , جـ٢ ,ص ٦٢١.
(١٦٧) Runciman, A History of the Crusades, Cambridge, 1954, 11, p. 247.

التفسير الذى ما دفع هيو إلى اختلاق هذه القصة هو حالة اليأس التى عاشها الصليبيون بعد سقوط إمارة الرها، وإنتشار الإحساس بالضعف والفشل فى مواجهة القوات الإسلامية فى تلك الفترة.

ومن خلال النصوص التى بين أيدينا عن الصورة الذهنية للاسلام فى مخيلة العوام فى أوربا منها أسطورة الكاهن يوحنا وطبيعة هذه الاسطورة تبين أنه ساد الاعتقاد فى أوساط الصليبيين فى بلاد الشام وفى بلاد أوربا أن فى الشرق الاسلامى البعيد أمير غنى وقوى يمكنه مساعدة الصليبيين فى بلاد الشام وذلك عبر مهاجمة المسلمين من خلفهم. وقد سجل المؤرخ الألمانى أوتو أف رايزنج الأسطورة. وأوتوا هو ابن عم الملك الألمانى كونراد الثالث Conrad III ملك ألمانيا (١١٣٨ – ١١٥٢م)، وقد صاحب أوتو الشق الألمانى من قوات ما عرف بالحملة الصليبية الثانية على بلاد الشام تحت قيادة الملك كونراد. وقد أنتشرت هذه الأسطورة بمعرفة أوتو هذا الذى سجل أن هيو أسقف جبله ذكر أن شخصاً يدعى يوحنا John وهو ملك أوكاهن موطنه فى بلاد ما وراء أرمينيا وبلاد الفرس فى الشرق البعيد عن المسيحيين النساطرة، ويفصل هيو ذلك بأن يوحنا قد حارب إخوته ملوك الفرس وميديا وانتصر عليهم [١٦٨].ويضيف أتو أف رايزنج أن يوحنا عندما تقابل مع إخوته الملوك بجيشه فى معركة أستمرت ثلاثة أيام، حرص كل فريق منهم على القتال حتى الموت. وكان يوحنا يطالب رجاله بإجبار الفرس على الفرار وإحراز النصر، كما أن يوحنا بعد ما أحرز النصر على الفريق الآخر تحرك بجيشه ليقدم المساعدة إلى كنيسة القيامة فى القدس، ولكنه عجز هو وقواته عن عبور نهر دجلة، لذلك إتجهوا إلى الشمال. وقد علم الكاهن يوحنا أن النهر يتحول إلى ثلج فى فصل الشتاء . ورغم ذلك حاول عبور النهر عدة مرات فى سنوات عدة ولكنه فشل بعدما فقد العديد من رجاله وذلك نتيجة لسوء الأحوال الجوية فعاد يوحنا ورجاله إلى بلادهم [١٦٩].فى نفس الوقت وعلى الرغم من إنتشار تلك الصورة الاسطورية الطابع فلم يشارك البابا يوجين الأسقف هيو أو المؤرخ الألمانى الأمل فى أن الكاهن يوحنا سوف يعمل على محاربة المسلمين فى الشرق وأنقاذ الصليبيين، ولذلك إستعد للدعوة إلى حملة صليبية [٥]. وفى الوقت نفسه اتجه الأسقف هيو إلى الملك الفرنسى والألمانى ليبلغهم بسقوط إمارة الرها وطلب النجدات. وقامت الحملة الصليبية الثانية بقيادة كونراد ملك ألمانيا ومعه قرابة سبعين ألفاً من الألمان، وفيليب السابع Philip VII ملك فرنسا (١١٣٧ – ١١٨٠م)، الذى كان اصطحب معه قرابة هذا العدد من الفرنسيين. وقد وصلت الحملة إلى بلاد الشام فى عام ١١٤٨م أى بعد أكثر من ثلاث سنوات تقريباً من سقوط إمارة الرها، وقد فشلت الحملة تماماً فى تحقيق أهدافها مما شجع المسلمون للقيام بالعديد من العمليات العسكرية ضد الصليبيين. وفى غمرة فشل الصليبيين فى مواجهة المسلمين بدأت أسطورة الكاهن يوحنا تظهر من جديد، وتناولها الصليبيون والأوربيون بدرجة أصبح لا يمكن إغفالها، حتى أن البابا إسكندر الثالث Alexander III (١١٥٩ – ١١٨٤م) أعد فى عام ١١٧٧م أحد رجال الدين وأسمه فيليب Philip، ومعه رسالة باباوية، وطلب منه السفر إلى الشرق والبحث عن هذا الكاهن يوحنا ليطلب منه مساعدة

---

(١٦٨) راجع : Otto of Freising, The Two cites, New York 1928, pp. 442-4.

(١٦٩) راجع : Otto of Freising, The Two cites, New York 1928, pp. 442-4.

ويوضح الدكتور محمود سعيد عمران –رحمه الله – أن فى هذا الصدد يقال أيضا أن يوحنا يرجع اصله إلى المجوس الذين ورد عنهم اشارة فى الإنجيل، فقد ورد: "ولما ولد يسوع فى بيت لحم اليهودية فى أيام هيردوس (Herdos) الملك إذ مجوس من الشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين أين هو المولود ملك اليهود فأننا رأينا نجمه فى المشرق وأتينا لنسجد له " إنجيل متى: ٢: ١ - ٢. **أيضا** محمود سعيد عمران :فشل الحروب الصليبية وأثره على الفكر الاوربى, ص ٣.

الصليبيين , وقد ارتحل فيليب إلى بلاد المشرق المسيحية وغيرها حتى انتهت رحلته إلى بلاد الحبشة دون أن تحقق الرحلة أية نتائج تذكر(١٧٠). وتطور الامر بعد أن نمت القوات الاسلامية تحت قيادة صلاح الدين التى وتمكنت من هزيمة الصليبيين فى معركة حطين واسترداد مدينة القدس فى عام ١١٨٧م، وترتب على ذلك قيام الحملة الصليبية الثالثة بقيادة كل من فريدريك باربا روسا Frederik Barbarosa إمبراطور ألمانيا (١١٥٢ – ١١٩٠م)، وملك فرنسا فيليب أوغسطس Philip Augastus (١١٨٠ – ١٢٢٣م)، و معهم ملك انجلترا ريتشارد قلب الأسد Richard the Lion hearted (١١٨٩ – ١١٩٩م) ولم تحقق الحملة أهدافها وانتهت أحداث الحملة بصلح يافا عام ١١٩٣م (١٧١) ، الذى لم يضف كثيراً فى تحسين الامارات الصليبية للامارات الصليبية.

وانتقلت الاسطورة بعد ذلك وتأثرت بورود أخبار قبائل المغول والتتار والنايمان والكرايث وصراعها مع بعضها البعض إلى أن وصلت إلى مسامع الصليبيين والأوربيين. ففى عام ١١٩٩م أى بعد ست سنوات من رحيل الحملة الثالثة انحاز جنكيزخان زعيم المغول إلى طغرل خان زعيم قبائل الكرايث المسيحية النسطورية، وأنزلا بقبائل النايمان هزيمة كبيرة، وبدأ يظهر إسم طغرل خان كأعظم أمراء هذه القبائل. وكان طغرل خان يعرف باسم وانك خان أو أونك خان، وقد تسلل هذا الاسم إلى غرب آسيا فى صيغة "يوحنا" وبدأت الأسطورة تعود من جديد لذلك اعتبره الأوربيون الكاهن يوحنا. وعاد الأمل من جديد يراود أحلام الصليبيين، ولكن طغرل هذا قد هزم على يد قبائل المغول بقيادة جنكيز خان الذى تمكن من توحيد القبائل كلها وإقامة دولة المغول، فخبت الأسطورة إلى حد ما(١٧٢).

وتطور الامر فى تلك الاسطورة وأصبحت ذات بعدا إسلاميا محضا , فظهرت الأسطورة مرة أخرى بشكل كبير خلال أحداث الحملة الصلبية على مصر، فيذكر المؤرخ أوليفر أف بادنبورن Oliver of Padenborn الذى صاحب الحملة حول مدينة دمياط، ذكر أنه بعد سقوط المدينة فى ٥ نوفمبر ١٢١٩م)، لفت إنتباه الصليبيين مكتوباً كتب باللغة العربية يقول كاتبه أن شخصاً ليس يهودياً أو مسيحياً أو مسلماً، وأياً كان هو، فقد ورد فى المكتوب أن الشياطين هى التى دفعت صلاح الدين لقتال الصليبيين، وتخريب مدينة طبرية، وأنه أحرز النصر على الصليبيين، وتمكن من أسر ملك مملكة بيت المقدس وأمرائه واستولى على مدينة القدس، وخرب مدينة عسقلان، وورد أيضا فى المكتوب أنه حاول الاستيلاء على مدينة صور ولكنه لم ينجح، كما وردت أنباء أخرى تفيد أن الصليبيين استحقوها بسبب آثامهم. بالاضافة إلى أن الصليبيين قد خربوا بساتين النخيل المحيطة بمدينة دمياط. كما ورد فى المكتوب أيضاً أن مدينة دمياط ستسقط فى يد الصليبيين، ولم يشر كاتب المكتوب إلى إسم صلاح الدين ولكنه أشار إليه بلون عينيه السوداويتين وعلمه الزعفرانى اللون. وإلى جانب ذلك تنبأ أن ملكا مسيحياً من مملكة النوبة (إثيوبيا) خرب مدينة مكة ونبش قبر الرسول محمد، وتنبأ أيضاً بأمور أخرى لم تحدث بعد، وإذا حدثت فإنها سوف تقود القوى المسيحية إلى هزيمة الهاجريين (أى المسلمين) . وجاء فى المكتوب

(١٧٠) Runciman, op.cit., II, pp. 442 - 3.

(١٧١) ابن شداد (يوسف بن رافع بن تميم): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية , تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال, الدار المصرية للتأليف والنشر , القاهرة ١٩٦٤ , ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

(١٧٢) Runciman, op.cit., 11, p. 240.

أيضاً أن الوثنيين يعترفون بالمسيحية بلسانهم وليس بقلوبهم، وانهم ينطقون بوحى السيد المسيح، وأن الصليبيين لا يتعجبون من ذلك، لأن المياه العذبة تخرج من الحجر [١٧٣].

واستكمالاً لهذه الأسطورة –التى إتخذت طابعا اسلاميا ,، فقد خرجت الرسائل من مدينة دمياط بعد سقوطها، وهذا ما بشرت به الأسطورة، إلى كافة أنحاء العالم المسيحى آنذاك ، بعد ما تجدد الأمل كثيراً فى أسطورة الكاهن يوحنا. وقد عزز من هذه الأفكار وجود خطاب آخر صادر من ملك جورجيا إلى معسكر الكاثوليك (الصليبيين) فى دمياط، وقد ورد بهذا الخطاب : أن الملك سيعمل على محو العار الذى لحق بالصليبيين، كما أنه دعا إلى اجتماع الزعماء الأوربيين لمحاصرة مدن العرب الشهيرة، وطالب بالاتحاد للعمل من أجل نجدة الصليبيين، وعلى القوات الأوربية أن تأتى من كل أنحاء الأرض عبر البحار وهى مسلحة لتستولى على المدن الحصينة بعد حصارها، وعليها أيضاً مهاجمة المسلمين والاستيلاء على مدينة دمشق أو أى مدينة أخرى بقوة السلاح[١٧٤].ويضيف المؤرخ أوليفر أن أهل جورجيا قد أعتنقوا المسيحية، وأنهم ، وانهم ينتظرون المسيح الدجال، وسوف يتقدمون للأمام ويسببون خراباً كبيراً، وأن أهل جورجيا رجال مقاتلون، كما أن نساءهم متمرسات على القتال، وأن رجالهم عندما يذهبون إلى القتال يشربون بعض النبيذ النقى ثم يهاجمون ويحاربون بكل شجاعة [١٧٥].ويرجع ذلك كله إلى أن المكتوب الذى ظهر فى دمياط، قد أشار إلى سقوط مدينة دمياط فى مرحلة لاحقة، وهذا يعنى أن النبوءة قد تحققت، وأن الكاهن يوحنا على وشك الظهور. ويضيف أوليفر أنه ساد الاعتقاد لدى الصليبيين فى تلك الفترة أن هناك ملكاً يدعى داود، وهو ابن الكاهن يوحنا [١٧٦] . وقد أدى هذا كله إلى أن قادة الحملة الصليبية الخامسة، قد اعتقدوا فى دمار العالم الاسلامى، وأن أمير جورجيا سوف يبذل كل المساعدة للقوات الصليبية بعد أن استولت على دمياط، كما أن الكاهن يوحنا أو ابنه قد أصبحوا مستعدين لمساندة الصليبيين حسب ما ورد فى الأسطورة. ولذلك رفض القادة الصليبيون كل عروض الصلح التى تقدم بها الملك الأيوبى الكامل ناصر الدين محمد (١٢١٨ – ١٢٣٨م)، وهى التنازل عن كل الأماكن التى استردها صلاح الدين عدا قلعتى الكرك والشوبك مقابل الجلاء عن دمياط [١٧٧]. كما أن البابا هونوريوس الثالث Honorius III (١٢١٦ – ١٢٢٧م) قد تأثر بأسطورة الكاهن يوحنا، والتى أصبحت تربط بين كلا من الكاهن يوحنا والملك داود فى تلك المرحلة، خاصة وأن ظهور جنكيز خان فى تلك المرحلة أيضاً قد رُبط بيته وبين الكاهن يوحنا، والحقيقة أن شيئاً مما تصوره الصليبيون لم يحدث، وهزمت الحملة، وجلت عن مصر، ثم نجح الامبراطور فريدريك الثانى (١٢١٢ – ١٢٥٠م) فى استلام القدس سلما بموجب معاهدة ١٢٢٩م [١٧٨]. وبعد هذه المرحلة

---

(١٧٣) راجع:
Oliver of Padenborn, The Capture of Damietta, tran. John J. Cavigan, Philadelphia, 1948, pp. 49 - 50.

(١٧٤) Ibid., p. 51.

(١٧٥) Ibid., p. 51.

(١٧٦) Ibid., p. 71.

(١٧٧) محمود سعيد عمران: الحملة الصليبية الخامسة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، اسكندرية ١٩٧٨، ص ٣٠٢ - ٣٠٤.

(١٧٨) ابن الأثير(على بن محمد بن محمد) : الكامل فى التاريخ , دار صابر , بيروت , ج١٩٧٩ , ج١٢ , ص ٤٨٢ - ٤٨٣.

خاب أمل أوربا فى أن يكون خان المغول هو الكاهن يوحنا لأن المغول قاموا بغزو روسيا ثم تقدموا داخل الجزء الشرقى من أوربا وتقدموا حتى وصلوا ساحل دالماشيا الساحل الشرقى للبحر الادرياتيكى الآن فى شبه جزيرة البلقان عام ١٢٤١م، ولم ينقذ أوربا من التوسع المغولى سوى موت الخان الأعظم أوكيتاى (١٢٢٧ – ١٢٤١م) فى العام نفسه فاضطر المغول إلى التراجع وظلوا فى روسيا [١٧٩].وفى عام ١٢٤٤م أى بعد ثلاث سنوات نجح المسلمون فى استعادة مدينة القدس، وما أن وصلت الأخبار إلى أوربا حتى بدأت تستعد لحملة صليبية دعا إليها البابا إنوسنت الرابع Innocent IV (١٢٤٤ – ١٢٥٤م) إليها مجلساً للانعقاد فى مدينة ليون Lyons الفرنسية فى ربيع عام ١٢٤٥م. ورغم أن أوربا كلها قد أيقنت أن الكاهن يوحنا ليس هو خان المغول بعدما هاجموا أوربا، إلا أن البابا وفى لحظات ما بين خيبة الأمل والرجاء، قام بتصرف شخصى منه وأرسل قبل انعقاد المجلس السفارات إلى خان المغول ولديه الأمل فى التعامل مع المغول بشكل أو بآخر لضرب القوات الاسلامية فى بلاد الشام، ولكن سياسة المغول فى تلك المرحلة كانت تختلف عن سياسة البابوية وأوربا، فكان الخان الأعظم المغولى يرى أنه ملك العالم وأن على جميع الشعوب الخضوع له وتتعامل معه على أنه السيد الأعظم. وعلى هذه الشعوب أن تقدم له فروض الولاء والطاعة والجزية، لذلك اختلفت وجهات النظر بين المغول والأوربيين فى هذه المرحلة، ولم يتم التحالف بينهما لضرب العالم الاسلامى. وكل ما كانت ترجوه البابوية فى هذه المرحلة هو السماح للمبشرين الكاثوليك بالتبشير بين المغول [١٨٠].وظل الحال كذلك حتى هزم المغول فى معركة عين جالوت ١٢٦٠م، فتحول المغول من سياسة التسيد إلى سياسة محاولة التحالف مع أوربا لضرب العالم الاسلامى، وهو ما لم يتم إلا على نطاق محدود جداً، وغير فعال من الناحية العملية، ولكن التحالف مع المغول ظل فى الفكر الأوربى وهو ما سنتعرض له فى موضوع آخر من هذا البحث. والمهم أن أسطورة الكاهن يوحنا ظلت حوالى مائة عام أى من عام ١١٤٦م وحتى عام ١٢٤٥م تزود الصليبيين والأوربيين بخيال خصب بفكرة الانتصار على المسلمين فى مصر والشام. ومن جانب هذا الأمل أن زوجة هولاكو خان مغول فارس (١٢٥٦ – ١٢٦٥م) وهى طقر خاتون كانت مسيحية نسطورية، لذلك لم تمس كل الأماكن المسيحية فى كل الحروب التى تولى أمرها هولاكو، وعندما توفيت طقر خاتون طلب هولاكو من الامبراطور البيزنطى زوجة له فأرسل ابنة غير شرعية وهى مسيحية كذلك، ولكنه توفى قبل وصولها فتزوجها ابنه إبغا (١٢٦٥ – ١٢٨٢م)، وتجدد الأمل مرة أخرى لدى الأوربين، وظل كذلك حتى تحول معظم فارس الى الاسلام، فانقطع الأمل تماماً [١٨١].

كذلك مما يذكر فى تلك الصورة الذهنية الاسطورية الطابع التى رسمت عن الشرق والاسلام فى تلك الفترة هى الرؤى والتنبؤات التى أدت إلى قيام حملتى الصبيان فى عام ١٢١٢م، وترجع هذه الأحداث إلى فشل الحملة الصليبية الثالثة فى استعادة بيت المقدس، وانحراف الحملة الصليبية الرابعة عن مسارها وهو مهاجمة مصر إلى مهاجمة القسطنطينية واسقاط الامبراطورية البيزنطية (١٢٠٤ – ١٢٦١)، وترجع أحداث حملتى الصبيان إلى عام ١٢١٢م، وحول هذه الحملة ذكرت إحدى الحوليات المعاصرة للأحداث أنه فى أيام عيد القيامة

(١٧٩) The Chronicle of Novgord, tran. Robert Mnichell London, 1914, pp. 81.
(١٨٠) Victor - Bernardin, Missions Franciscaines, Paris 1893, pp. 22.
(١٨١) محمود سعيد عمران: الحملة الصليبية الخامسة، ص٣٠٥.

قام الآلاف من الصبيان وأعمارهم بين السادسة إلى الثانية عشرة بترك المحاريث والعربات وكل أعمالهم على غير رغبة من بعض أولياء أمورهم، وسارعوا بحمل الصليب، وتحركوا فى شكل جماعات بلغ عدد الواحدة عشرين أو خمسين أو مائة رافعين راياتهم، وبدأوا الرحلة إلى بيت المقدس، و تسائل الناس عما يفعلون فكان جوابهم أننا نتحرك طبقاً لإرادة إلهية، لأن كثيرا من الملوك وقواتهم قد تحركوا لتحرير الأراضى المقدسة ولكنهم عادوا إلى أوربا دون تحقيق أهدافهم، وأضافوا إننا نتحرك وفق إرادة الرب. وبعد ما بدأت الرحلة عاد بعضهم بعد ما وصل إلى مدينة ميتز Metez، والبعض من مدينة بياكنزا "بياتشنزا" Piacenza، وآخرون بعدما وصلوا إلى روما،سار البعض حتى وصل إلى مدينة مرسيليا Marseilles، وقد أبحر البعض إلى بلاد الشام والبعض إلى أماكن غير معلومة، وتبقى معلومة واحدة، وهى انه لم يعد من هؤلاء الآلاف إلى ديارهم إلا القليل [١٨٢].ولعل تفسير ذلك كله أنه فى شهر مايو ١٢١٢م، وفى كنيسة القديس دنيس Saint Denis بالقرب من باريس، ظهر صبى آخر يعمل راعياً يدعى ستيفن Stephen، وقد تقدم هذا الصبى إلى الملك فيليب أوغسطس حيث كان يعقد اجتماعاً مع رجال بلاطه، وقدم له خطاباً ذكر فيه أن السيد المسيح ظهر له وأمره بالدعوة إلى حملة صليبية، ولكن الملك لم يعر الصبى انتباهاً، وأمره بالعودة إلى داره. ولم ينصاع الطفل لأوامر الملك، بل أنه قال للملك فيليب أوغسطس أنه سوف يتولى أمر انقاذ بيت المقدس والأراضى المقدسة وسينجح فيما لم ينجح فيه الملوك السابقين، وأضاف أن البحر سينشق أمامه وأمام مع معه مثلما انشق أمام النبى موسى (عليه السلام)، وسيعبرون من أوربا إلى الأراضى المقدسة. وقد التف حول ستيفن الآلاف من الصبيان , وبلغ مجموعهم أكثر من خمسين ألف صبيا، إنضم إليهم بعض الرجال والعديد منرجال الدين، وتجمعوا فى وسط مدينة باريس استعداداً للرحيل وتحرك الجميع سيراً على الأقدام إلى مدينة ليون ثم إلى تولوز Toulouse، ثم تابعوا مسيرتهم حتى وصلوا إلى مدينة مرسليا [١٨٣] . وتكمل المصادر بأن هؤلاء الصبيان بعد أن وصلوا إلى مرسليا رحب بهم سكان المدينة وساعدوهم بإعداد المأكل والمشرب والايواء حتى يحين موعد انشقاق البحر أمامهم، ولكن المعجزة لم تحدث. وبعد طول انتظار ثار البعض على ستيفن وعصاه البعض الآخر، وعاد ما أمكنه العودة إلى دياره، بينما ظل البعض فى المدينة انتظاراً لانشقاق البحر الذى لم يحدث [١٨٤]

وكان من الطبيعى أن يهلك الكثير من هؤلاء الاطفال نتيجة للظروف والملابسات التى صاحبت تلك الحملة والتى تتمثل فى طول المسافة ومشقة الطريق وعدم قدرة هؤلاء الصبيان على التعامل مع تلك المصاعب.

ومن بين تلك النبؤات أيضا عن الصورة الذهنية ما قام به الصبى نيقولا Nicholas فى مدينة كلونى فى المانيا وادعى أيضاً أنه سيخلص مدينة القدس عن طريق نشر المسيحية بين المسلمين. وقد التف حول نيقولا هذا الآلاف من الصبيان والرجال والنساء الذين لا خلاق لهم، وأدعى نيقولا أيضاً أن البحر سينشق أمامه ومثلما ادعى ستيفن. وبعد ما تجمع حوله ما يقرب من عشرين الفا، بدأت الرحلة إلى ايطاليا عبر جبال الألب حتى

---

(١٨٢) راجع :
Chronica Regiae Coloniensis, The Children’s Crusade 1212, in Brundage, J., The Crusades: A documentary History, Milwaukee, W1; Marquette University press, 1962, p. 213.

(١٨٣) Runciman, op.cit., 11, pp. 139 - 140.

(١٨٤) محمود سعيد عمران: المرجع السابق - ص ١٣٩ – ١٤٠.

وصلوا إلى روما حيث يوجد البابا إنوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨ – ١٢١٦م) الذى فشل فى أقناع الصبيان بالعودة إلى دريارهم. ولم يختلف مصير هؤلاء عن زملائهم الفرنسيين. ولما علم أولياء الأمور بما حدث ثاروا على والد نيقولاس لتشجيع ابنه وشنقوه (١٨٥). ومن الجدير بالذكر أن النصوص التاريخية المعاصرة لم تمدنا بتفاصيل ودوافع الصبيان ستيفن ونيقولاس للقيام بهذا العمل، ولكن أحد الرحالة الغربيين الذين عاشوا فى القرن الخامس عشر الميلادى ذكر أن مقدم طائفة الاسماعيلية فى بلاد الشام حرض إثنين من الأساقفة المنشقين على الكنيسة الكاثوليكية على أن يصوروا للصبيين أن السيد المسيح قد ظهر لهما وسط الحقول وصور لهما هذه الرؤية الباطلة (١٨٦) . وختاماً لهذا الموضوع، أنه اثناء وجود الصبيان فى الموانى عرض تاجران على الصبيان نقلهم إلى فلسطين بدون أجر، وقد وافق الصبيان على ذلك، فركبوا السفن، وظل مصيرهم مجهولاً لبعض الوقت. ومما لا شك فيه أن هؤلاء الصبيان قد بيعوا كعبيد فى موانى البحر المتوسط (١٨٧). وقد لام المؤرخ المعاصر ميشو Michaud حكام أوربا التى لم يكن لديها القوانين التى تمنع هذا تلك الافعال الجنونية والتى تعد عاراً على أوربا بأسرها (١٨٨).

ومن بين الامور التى ركز عليها الغرب الاوربى فى التعامل مع نظرته للاسلام كمفهوم سلبى عن الآخر إستراتيجية كتلكة أو ليتنة العالم الاسلامى، أى إدخال المسلمين فى المسيحية على المذهب الكاثوليكى. وكتلكة البشر أى المسلمين. والحقيقة أن هذه العملية بدأت فردية ثم تحولت إلى نشاط جماعى عن طريق جماعة الفرشسكان والدومنيكان، ثم صارت بعد ذلك نقطة رئيسة فى الفكر الأوربى بعد فشل الحروب الصليبية فى المشرق، ولم يقتصر الفكر الأوربى على مسلمى الشام ومصر أو تونس أو المغرب، بل تعدتها إلى محاولة كتلكة الامبراطورية البيزنطية الأرثوذكسية التى وجدت أوربا فيها عقبة أمام انتصار أوربا على المسلمين فى المشرق. وعن عملية الكتلكة الفردية ما رواه المؤرخ أسامة بن منقذ فى رواية شابها الطرافة فى التفاصيل، ولكنها عميقة فى معناها، فقد روى أنه كان ضمن الأسرى الصليبيين الذى وقعوا فى يد والده، إمرأة عجوز، وابنتها وهى شابه حسنة الخلق، وابن قوى يدعى راؤول، وقد اسلم الابن وحسن إسلامه، وتعلم فن صناعة الرخام وتركيبه، وهو ما يطلق عليه فن الترخيم. ولما طال مقام راؤول زوجه والد أسامة إمرأة من قوم صالحين، وقدم له كل ما يحتاجه منزل الزوجية، وقد رزق هذا الشاب بولدين، وكان والدهما مسرور بهما، وبعد ما أصبح سن الولدين الخامسة أو السادسة هرب بهما الأب واتجه إلى الصليبيين فى مدينة افامية وتنصر هو وولديه بعد الاسلام (١٨٩).كذلك مما يروى أيضاً حول عملية التنصير الفردية ما رواه الرحالة ابن جبير الذى مر ببلاد الشام بعد رحلته إلى مكة، فقد ذكر أن رجلاً مغربياً مسلماً تم افتدائه من إسرى الصليبيين الذين تعامل معهم وتخلق

---

(١٨٥) Runciman, op.cit., III, pp. 141 -142. 2

(١٨٦) **راجع :**

Fabri, Felix, The Book of Wandering, Tran. Aubrey Stewart, 2 vol., London 1893, I, p. 203.

(١٨٧) Tompsons, History or of Middle Ages, London, 1931, p. 206.

(١٨٨) Michaud, M. History of Crusades, tran, Robnson, London, 1852, I, p. 203.

(١٨٩) أسامة بن منقذ (أبو المظفر مؤيد الدولة مجد الدين أسامة بن منقذ) : من كتاب الاعتبار - اختار النصوص وقدم لها وعلق عليها الدكتور عبد الكريم الأشتر , دمشق , ١٩٨٠ , ص ٢٨.

بأخلاقهم فتنصر مدة وقد بُطس (عُمد) فى بلادهم [١٩٠].ومن هذه العمليات أيضاً ما رواه المؤرخ أوليفر أف بادنبورن عندما تكلم عن أحداث الحملة الهنغارية (١٢١٧ – ١٢١٨م) وذكر الأحداث المتعلقة بمهاجمة الصليبيين لحصن الطور المقام فى طريق بين القدس والساحل، وفشلهم فى الاستلاء على الحصن بعد عدة محاولات، ومن الواضح أن فشل الصليبيين فى هذه المعارك قد أصابهم بالاحباط، فرحلوا ومعه ببعض الأسرى من الرجال والسيدات والأطفال. وقد قام أيضا جاك أف فترى James of Vitry أسقف مدينة عكا بتعميد هؤلاء الأطفال [١٩١]. ومن الواضح أن هؤلاء الأسرى كانوا من سكان الريف الذين يعيشون حول الحصن ولا علاقة لهم من قريب أو بعيد بالعمليات العسكرية.

أما عن عمليات التبشير بالكاثوليكية داخل العالم الاسلامى بمعرفة جماعة الرهبان الفرنشسكان، فنروى منها ما حدث من مؤسس الطائفة نفسها القديس فرانسيس الأسيسى Francis of Assis الذى إعترف مجلس الاتيران الكنسى بجماعته ومعه جماعة الدومينكان فى عام ١٢١٥م، فقد حدث أثناء الأحداث المتعلقة بالحملة الصليبية الخامسة وقبل سقوط دمياط فى نوفمبر ١٢١٩م أن الملك الكامل عرض الصلح على الصليبيين بشروط مجزية، وهى إعادة القدس وكل الأراضى التى استردها صلاح الدين الأيوبى عدا قلعتى الكرك والشوبك نظير الجلاء عن الأراضى التى استولوا عليها حول مدينة دمياط، ولكن أغلبية القيادة الصليبية رفضت هذا العرض.وفى وسط هذه الأحداث وصل إلى المعسكر الصليبى جنوب دمياط القديس فرانسيس الأسيسى، ولعله شاهد بعض المعارك أو المناوشات الصليبية الإسلامية. ولابد انه علم بانقسام الصليبيين حول فكرة قبول أو رفض الصلح، وكان هو شخصياً من أنصار قبول الصلح، ولكن نصائحه لم تلق قبولاً أمام الرافضين للعرض [١٩٢].وقد رأى القديس فرانسيس أن يقوم بعمل آخر من جانبه لتحقيق حلم الطائفة وهى محاولة إدخال الملك الكامل فى الديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكى، فطلب من القادة الصليبيين السماح له بالذهاب إلى المعسكر الاسلامى لمقابلة الملك الكامل فأذنوا له. وأخيراً وجد نفسه أمام الملك تحيط به حاشيته وتراجمته، واستأذن القديس فرانسيس فى الحديث للملك فسمح له، وبدأ بوعظ الكامل شارحاً له الديانة المسيحية ودعاه للدخول فيها. وقد استمع اليه الملك فى دماثه المتمكن من عقيدته المحترم لعقيدة غيره. ولما يجادل الملك القديس فرانسيس، ولم يسمح لأحد من رجاله أن يجادله، بل استمع اليه فى صبر واناه، وبالغ فى إكرامه، وأخيراً عاد القديس فرانسيس إلى معسكر الصليبيين دون أن يحقق شيئاً [١٩٣]. يضاف إلى هذه الأفكار التى دارت حول كتلكة العالم العربى ما رواه المؤرخون حول حملة لويس التاسع Louis IX ملك فرنسا (١٢٢٦ – ١٢٧٠م) على تونس، وترجع أسبابها الرئيسية إلى فشل الملك فى حملته على مصر وعلى بلاد الشام (١٢٤٩ – ١٢٥٤م)، وفشله أيضاً فى التحالف مع المغول، فاستعد بحملة أخرى للتوجه إلى الشرق. وبينما هو يستعد للابحار ومعه القوات الانجليزية بقيادة الأمير إدوارد Edward ، ظهرت أفكار أخرى فتوجه إلى تونس بدلاً من الشرق. وموجز

---

(١٩٠) ابن جبير(محمد بن أحمد بن جبير): رحلة ابن جبير , تذكرة بالاخبار عن اتفاقيات الأسفار , دار صادر , بيروت , ١٩٧٩ , ص ٢٨١.

(١٩١) Oliver of Padenbron, op.cit., p. 16.

(١٩٢) محمود سعيد عمران: المرجع السابق - ص ٣٠٤ - ٣٠٦.

(١٩٣) محمد مصطفى زيادة: حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة , القاهرة ١٩٦١ , ص ٥٠ – ٥١.

هذه الأفكار أن الملك لويس التاسع كان يعتمد على أخيه شارل كونت أنجو Charles of Anjou ملك صقلية وجنوب ايطاليا (١٢٦٦ – ١٢٨٥م)، وكان شارل يرى أنه اذا كان عليه اللحاق بحملة صليبية فيجب أن تكون ضد تونس التى يحكمها الأمير أبو عبد الله محمد المستنصر بالله الحفصى (٦٤٧ – ٦٧٥هـ/ ١٢٤٠ – ١٢٧٧م) الذى توقف عن دفع الجزية لملك صقلية بعد موت فريدريك الثانى امبراطور ألمانيا، وأصبح يأوى المتمردين على شارل كونت أنجو الذين لجأوا إلى بلاده [١٩٤].وتنبغى الأشارة إلى أن المستنصر كان حاكماً مسلماً متسامحاً، عاش فى بلاطه الكثير من المسيحيين، وتردد على بلاده الكثير من التجار المسيحيين وسمح لهم بمزاولة عملهم بكل حرية، كما سمح بإقامة أحد الأديرة فى عاصمته، ولعل ذلك ما دفع البعض ومنهم شارل إلى التفكير فى أن المستنصر ينوى التحول إلى المسيحية، إلا أنه يخشى معارضة رجال الدين فى بلاده، واعتقد شارل فى أن يتحول المستنصر إلى المسيحية ويصبح حليفاً له [١٩٥] وهو الأمر الذى لم يحدث.

ونكتفى فى نهاية هذه النقطة بالحديث عن الأفكار السلبية التى نادى بها الداعية بيير دوبوا Peter Dubois (ت ١٣٢٠م) حول الطريقة التى يتم بها كثلكة العالم العربى والبيزنطى الأرثوذكسى، فقد طالب بإقامة منظومة تعليمية منفصلة عن التعليم التقليدى فى المدارس والجامعات، وذلك بإقامة مؤسسة تعليمية واسعة الانتشار تكون مهمتها إنشاء مدارس تعليمية للصبيان والبنات فى فرنسا للخدمة فى بلاد المشرق ليكونوا نواة فى هذه البلاد لتحويلها من ديانتها إلى المسيحية الكاثوليكية. وطالب بتعليم البنات العلوم العادية مع التركيز على تعليمهن فنون الطب والجراحة والتعمق فى مفاهيم المذهب الكاثوليكى للوصول إلى المكانة الاجتماعية يدفع بالبنات للزواج من رجال الكنيسة الشرقية فى بيزنطة وغيرها ومن الأمراء والأثرياء المسلمين، وعلى تلك الزوجات العمل على تحويل أزواجهن إلى العقيدة الكاثوليكية، وعليهن أيضاً إختيار فتيات مدربات من أمثالهن ليكن زوجات لأولادهن [١٩٦] .

ومن ذلك يتضح أن عملية كثلكة العالم العربى قد بدأت مع الحروب الصليبية وذلك بتحويل جميع دور العبادة المسيحية والاسلامية فى جميع الأراضى التى استولوا عليها إلى كنائس كاثوليكية وعلى رأسها المسجد الأقصى، وكنيسة القيامة وكنيسة انطاكية [١٩٧]. وفيما يتعلق بالسكان فقد كانت عملية الكثلكة تتم بصورة فردية، ثم تبنتها الجماعات الدينية مثل جماعتى الفرنشسكان والدومينكان، ثم تحولت إلى فكرة عامة لدى الصليبيين والأوربيين بعد ما فشلوا عسكرياً فى الاحتفاظ بالمستوطنات الصليبية. وبدأ الدعاة ينادون بها ويخططون لكثلكة العالم العربى والإسلامى.

---

(١٩٤) **راجع :**

Villani, G., Selections from the First Nine Books of the Croniche Florentine. tran, Rose E. .Selefe, Westminister, 1896, pp. 215 – 217.

وأنظر أيضاً: الزركشى(أبى عبد الله محمد بن ابراهيم): تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية , عن مخطوط حيدر أباد الهند , تونس ١٩٦٦ , ص ٣٢.

(١٩٥) Villani, G., op.cit., p. 247.

(١٩٦) Pierre Dubois, The Recovery of the Holy land, tran, Walther I. Brand, New York, 1956, pp. 118 - 9, 124-5.

(١٩٧) Hamilton, B., The Latin Chruch in the Crusader States, London, 1980, pp. 59, 5220 – 10.

ومجمل القول أنه نتيجه لفشل الصليبيين والأوربيين فى مواجهة القوات الاسلامية أثراً كبيراً على الفكر الأوربى خلال الحروب الصليبية وبعدها –وفى مفهوم الآخر بالنسبه لهم , ومن هذه الأفكار ظهور أسطورة الكاهن يوحنا، وهو الحاكم الذى كان مفروضاً أن يظهر فى الشرق ويتحالف مع الصليبيين للقضاء على القوات الاسلامية. وهو الأمر الذى فسره الصليبيون والأوربيون أنه خان المغول، فسعوا بدورهم فى البحث عنه والتحالف معه طوال مائة عام أو يزيد.ومن هذه الأفكار أيضاً قيام حملتى الصبيان الذين اعتقدوا أنهم سوف ينجحون فيما لم ينجح فيه الملوك والأمراء وهو استعادة مدينة القدس، وأن البحر سينشق أمام هؤلاء الصبيان من ايطاليا إلى سواحل الشام مثلما أنشق أمام سيدنا موسى عند البحر الأحمر وسعبرون لتحرير بيت المقدس. ورغم أنه كانت هناك معارضة من البعض وهم قلة، فان حكام أوربا والبابا لم يتمكنوا من منع مسيرة الأطفال إلى إيطاليا التى كانت وسط مباركة عامة من أهل أوربا[١٩٨]. كذلك ظهر فكرآخر عن الشرق الاسلامى يتعلق بالرؤى والتنبؤات التى كانت تظهر من حين لآخر عندما يكون هناك فشلاً صليبياً فى حصار أو فى معركة أو الدعوة لحملة صليبية جديدة لمواجهة القوات الاسلامية، ومن ذلك قصة الحربة المقدسة التى يقال أن السيد المسيح طعن بها فى جنبه، أو ظهور بعض الصلبان فى السماء وعليها صورة السيد المسيح والتى فسرت بأن الأراضى المقدسة فى حاجة إلى مساعدات عسكرية ومعنوية.ومن الأفكار التى دارت فى عقول الأوربيين والصليبيين، بعد فشلهم فى هزيمة القوات الاسلامية، هو العمل على تنصير العالم العربى وبذلك ينتشر المذهب المسيحى الكاثوليكى ويعتنقه الملوك والحكام العرب ومن بعدهم رعاياهم، وبذلك يخضع العالم الاسلامى روحياً للبابا فى روما ويأتمر بأمره، ثم تأتى السيادة الأوروبية فى مرحلة لاحقة. ثم يليها شعب الامبراطورية البيزنطية الأرثوذكسى.كذلك ساد الفكر الأوربى بعد فشل القوة العسكرية، العمل على توحيد أوربا تحت قيادة موحدة تستطيع مواجهة العالم الاسلامى، وقد عمل بعض الملوك على تنفيذ بعض جوانب هذه الوحدة مثل الامبراطور هنرى السادس، كما نادى البعض بهذه الفكرة ورشح فيليب الرابع ملك فرنسا ليتولى أمر أوربا والامبراطورية البيزنطية[١٩٩].وفكرة الحصار الاقتصادى للعالم للشرق العربى، ومرجع ذلك إلى أن التجارة كانت أحد الأسباب الرئيسية فى ثراء منطقة الشرق الأدنى الاسلامى وزيادة قوتها العسكرية، لذلك رأى بعض الدعاة أنه لاستعادة الأراضى المقدسة ضرورة إضعاف العالم العربى اقتصادياً لاستعادة الأراضى المقدسةوإذا كان الصليبيون والأوربيون قد فشلوا فى تحقيق كل هذه الأفكار، فقد كانت الكشوف الجغرافية هى الواقع العملى، فتحولت التجارة من مصر والشام إلى الرجاء الصالح، ودخلت منطقة الشرق الأدنى الاسلامى فى دوامة الاستعمار بديلاً عن الحروب الصليبية [٢٠٠].

---

(١٩٨) محمود سعيد عمران: فشل الحروب الصليبية , ص ٣٢.
(١٩٩) نفس المرجع , ص ٣٣.
(٢٠٠) نفس المرجع , ص ٣٤.

الخاتمة

بعد أن عرضنا فى هذا البحث الصورة الذهنية للإسلام بين المؤرخين خلال العصور الوسطى يمكن أن عدد من النتائج تم التوصل إليها وذلك على النحو التالى:

- نلاحظ أن مفهوم الآخر فى توضيح العلاقة بين الانجيل والقرآن تشير إلى معرفة عقيدة الآخر , والتى تعنى وضع كل من محمد عليه الصلاة والسلام وعيسى بن مريم عليه السلام ولكن بمنهجية مختلفة , فمفهوم الآخر فى القرآن يشير إلى أبناء إبراهيم أو أهل الكتاب. أما فى الانجيل فمفهوم الآخر تعنى معرفة معنى المسيح نفسه وليس معرفة ديانات أو شعوب أخربكما أن الصورة التى رسمها الأوربيون عن الاسلام تكونت بفعل النصوص الدينية فى الكتاب المقدس أو من خلال كتابات الرحالة أو المؤرخين أو رجال الدين والسياسة فى العصور الوسطى وحديثهم إرتبط بالارض المقدسة فى الشرق , خاصة لدى اتجاه الكتابة لمؤرخى بيزنطة ومؤرخى أوربا اللاتين , رغم إختلاف تلك الرواية لدى بعض المؤرخين السريان.
- كان عدم الفهم سببا فى وجود تلك الصورة العنصرية السلبية للاسلام خاصة أن كلمة رب فى القرآن الكريم ليس لها مقابل فى اللغة الانجليزية والتى تعنى المؤسس والمسبب لكل من الحياة والموت , والمعنى لكلمة الدين فى الاسلام معنى عام وخاص يعنى بكل من العبادة والممارسة السياسية وفى كل مناحى الحياة , فى الوقت الذى كانت رسالة محمد عليه الصلاة والسلام موجهه إلى كل من اليهود والمسيحيين نجد أن نظرتهم له انحصرت فى كونه نبى حقيقى أو أنه مجرد ناقل لما ورد فى اليهودية والمسيحية من رسائل سنته عن الانبياء ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام أجمعين.
- ركزت صورة الآخر فى العصور الوسطى عن الاسلام بتشويه صورة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم واعتمدت فى معظمها على الرواية الشفهية أو المكتوبة من قبل رجال الدين عن الدعوة الاسلامية على إعتبارها تهدد أركان الايمان المسيحى فى النظرة لطبيعة السيد المسيح عليه السلام , خاصة لدى العوام من المسيحيين تأثرا بنظرة الكنيسة للاسلام , رغم تغير تلك النظرة جزئيا نتيجة للتعايش الذى حدث أثناء فترة الحروب الصليبية وما تلاها نتيجة للتأثيرات الاجتماعية الاسلامية على نط الكتابة التاريخى الاوربى فيما بعد.
- إزدات الصورة المعتمدة على التعصب ضد الاسلام خلال الحروب الصليبية لما كان للباباوية من تأثير فى دعم الدعاية السلبية ضد الرسول والاسلام لخدمة أهداف الكنيسة تارة ولخدمة أباطرة وملوك أوربا الموالين للكنيسة تارة أخرى , وتجلى ذلك فى دعم رجال الدين للأساطير والنبؤات مثل أسطورة الكاهن يوحنا وحملتا الصبيان ثم تحول ذلك إلى رؤى وجميعها سبل للدعاية الدينية تؤكد نظرة الكنيسة والمؤرخين على خطورة الاسلام والمسلمين على العقيدة المسيحية.
- تدرجت نظرة الاوربيون للاسلام من كونه هرطقة قبل قدوم الحروب الصليبية , ثم كونه إحدى صور الوثنية خلال فترة الحروب الصليبية.
- اعتمدت كتابات المؤرخين فى العصور الوسطى على السطحية فى تناول سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم لعدم المامهم باللغة العربية من ناحية , ولاعتمادهم على ترجمات مغلوطة لسيرة الرسول وللقرآن الكريم من

ناحية ثانية , ولاعتمادهم على الرواية الشفهية المنقوله والمدعومة من الباباوية من ناحية ثالثة.كذلك اتسمت كتابات المؤرخين عن صورة الآخر وفى وصف الاسلام والمسلمين بنظرة غير موضوعية كأعداء وثنيين للمسيح والمسيحية أو كمهرطقين خرجوا عن طوع الكنيسة وإيمانها بالسيد المسيح.

- نظر بعض المؤرخين إلى الرسول والاسلام على أنه وسيلة سياسية دينية استخدمها الرسول ومن ثم خلفائة فى محاولة الوصول إلى دور سياسى فى المشرق عبر اتباع تعاليم اعتمدت على العهد القديم والجديد فى التبشير بعقيدة اصلاحية لم تخرج عن صلب المسيحية بل واعتبار محمد صلى الله عليه وسلم سارقا للوحى لا منزلا عليه.
- لم يكن لدى البابوية ومن خلال إستخدام المؤرخين كوسيلة للدعاية الدينية السياسية إلا أن تتخذ إستراتيجية العداء للإسلام كمبرر لإنتشار الدين الاسلامى بل وهزيمته الامبراطوريات الفارسية ثم البيزنطية على أنه دين إنتشر بحد السيف لا بالقدوة والموعظة الحسنة.
- نتيجه لفشل الصليبيين والأوربيين فى مواجهة القوات الاسلامية أثراً كبيراً على الفكر الأوربى خلال الحروب الصليبية وبعدها –وفى مفهوم الآخر بالنسبه لهم , ومن هذه الأفكار ظهور أسطورة الكاهن يوحنا، وهو الحاكم الذى كان مفروضاً أن يظهر فى الشرق ويتحالف مع الصليبيين للقضاء على القوات الاسلامية. وهو الأمر الذى فسره الصليبيون والأوربيون أنه خان المغول، فسعوا بدورهم فى البحث عنه والتحالف معه طوال مائة عام أو يزيد.ومن هذه الأفكار أيضاً قيام حملتى الصبيان الذين اعتقدوا أنهم سوف ينجحون فيما لم ينجح فيه الملوك والأمراء وهو استعادة مدينة القدس، وأن البحر سينشق أمام هؤلاء الصبيان من ايطاليا إلى سواحل الشام مثلما أنشق أمام سيدنا موسى عليه السلام عند البحر الأحمر وسعبرون لتحرير بيت المقدس.
- نجد أنّ الصورة الذهنية التى رسمتها البابوية فى علاقتها مع الشرق الإسلامي , أسهمت بدورها فى تكون الـ صورة السلبية عن الآخر كانت من خلال اهتمامها بقضية الأراضي المقدسة، التي هدفت خلالها إلى احتلال شرق المتوسط وإقامة دولة لاتينية كاثوليكية فيه، والقضاء على الهرطقة الأرثوذكسية، ومن ثمّ القضاء على الإ سلام وسيادة العالم.

وفى النهاية يمكن القول أن الكتابات التاريخية خلال العصور الوسطى أثرت على اتجاهات الكتابة لدى المستشرقين فى مناصبة العداء للاسلام والمسلمين وهو الامر الذى تم تطوره إلى ظاهرة الاسلاموفوبيا فى الوقت الحالى والخوف من الاسلام بأشكاله الدينى والسياسى. وهو الأمر الذى يستدعى التوصية بالقيام بالعديد من الدراسات فى مجال العلوم الانسانية بعامة وفى مجال الدراسات التاريخية بصفة خاصة لتوضيح الصورة الحقيقية للإسلام والآخر.